الأخلاق النظرية في ضوء القرآن والسنة

إعداد

دكتور / محمد عبدالنبي يوسف

مدرس الدراسات الإسلامية

كلية الآداب بجامعة العريش

DOI: 10.21608/jfpsu.2021.73516.1084

الأخلاق النظرية في ضوء القرآن والسنة

ملخص البحث

إن علم الأخلاق علم له ثقله ووزنه فهو لا يدرس مواقف سلبية ، كما يفعل علم الجمال ، ولا يكتفي بانفعال الباطن انفعال الاستحسان أو الاستهجان ، وانما يدفع الانسان دفعاً إلى إحداث حركة في السلوك مؤثرة بقدر ما يطيق المرء أو يستطيع، وهذا العنصر المتميز في العملية الأخلاقية هو ما نسميه بالالتزام وليس الالزام وحده ، وهو العنصر الذي يقوم عليه بناء الأخلاق وإنما يكون هذا العنصر عديم القيمة مالم يكن هناك إلى جواره عنصران آخران هما :

المسئولية و الجزاء

فالكائن المسئول يكون ملزما في حدود مسئولياته من قبل الجهة التي تملك إلزامه ثم هو يسأل في حدود وقواعد معينة وفي حال تقصيره أو أدائه لمسئولياته يجب أن يوقع عليه أوله الجزاء المناسب لمدى التزامه أو تقصيره ، وبالإلزام والمسئولية والجزاء يتكامل البناء الخلقي تكاملاً ذاتياً.

مصدر الالزام الخلقي في الاسلام:

إن الاسلام يركز على العقل ويهتم به غاية الاهتمام والشئ الذي يلفت النظر أن بعض المفكرين الاسلاميين قد إهتم بالعقل وركز عليه والبعض الآخر إهتم بالعاطفة وتجاوب معها فإبن حزم قال : إن المنهج الاسلامي في تأسيس القواعد سواء في العقيدة أو في الفروع يعتمد على العاطفة من ناحية وعلى العقل من ناحية أخرى، فهو منهج متكامل يناسب طبائع الناس المختلفة ويناسب جملة الإنسان على العموم.

فالإنسان مكون من عقل وعاطفة، والاسلام يخاطب فيه العقل ويخاطب العاطفة، فمن تغلب عقله على عاطفته وجد في القرآن الكريم والسنة المطهرة مايلبي حاجته ومن تغلبت فيه العاطفة وجد لها في المنهج التشريعي ما يتجاوب معها ، لأن المنهج الاسلامي لا يتوجه بالخطاب الى طائفة بعينها.

إن علم الأخلاق علم يدعو إلى الإلتزام التام في سلوك الإنسان وحياته وتصرفاته وكذلك في أقواله وأفعاله مما يدعو الفرد والمجتمع إلى نشر الأخلاق والفضيلة بين المجتمع وهذا بسبب تفعيل الأخلاق النظرية في ضوء القرآن والسنه.

((والله ولي التوفيق))

الكلمات المفتاحية: الأخلاق النظرية، القرآن، السنة، المسئولية، الجزاء.

Theoretical Ethics in Light of the Qur'an and Sunnah

Summary

The science of ethics is a science that has its weight and weight as it does not study negative attitudes, as does aesthetics, and it is not satisfied with the emotion of the subconscious, the emotion of approval or disapproval, but rather pushes the person to create a movement in behavior that is effective as much as one can or can, and this distinct element in the ethical process It is what we call commitment, and obligation is not the only element on which the building of morals is based. Rather, this element is worthless unless there are two other elements next to it:

1- Liability and Punishment

The responsible entity is bound within the limits of his responsibilities by the party that has his obligation, then he is asked within certain limits and rules, and in the event of his negligence or performance of his responsibilities, he or he must impose on him or him the appropriate penalty for the extent of his commitment or his shortcomings, and with the obligation, the responsible and the reward, the moral structure is fully self-integrated.

The source of moral imperative in Islam:

Islam focuses on the mind and cares for it with the utmost interest. The thing that draws attention is that some Islamic thinkers have focused on the mind and focused on it, while others are concerned

with emotion and responded to it. Ibn Hazm said that the Islamic approach to establishing rules, whether in the creed or in the branches depends on emotion on the one hand and on the mind On the other hand, it is an integrated approach that suits the different natures of people and fits the whole human being in general.

The human being is composed of intellect and emotion, and Islam in it addresses the mind and addresses the emotion, so whoever conquers his mind over his emotion finds in the Holy Qur'an and the Sunnah the purified one that meets his needs.

The science of ethics is a science that calls for full commitment in the behavior, life and actions of man, as well as in his words and deeds, which calls on the individual and society to spread morality and virtue among society and this is due to the activation of theoretical ethics in the light of the Qur'an and Sunnah.

((God grants success))

Keywords: **theoretical ethics, the qurán, sunnah, liability, punishment.**

الأخلاق النظرية في ضوء القرآن والسنة

تصدير :

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى *

وبعد:

فقد قصدت إلى هذا الموضوع واخترته للكتابة فيه لما نراه من حين إلى آخر للكتابة فيه فيحيى البعض منهم نظرية قديمة أو يتعصب لفكرة ارتآها وقد قال بها من قبل عالم من العلماء يجله ويحترمه ، أو يعدل تعديلاً عظيماً أو ضئيلاً في نظرية من النظريات يظن بعد هذا التعديل أنها أصبحت جديدة كل الجدة ، أو على الأقل قد أصبح لها من التجديد حظ يؤهلها من وجهة نظره ، لكي تحل مشاكل الحاضر أمام الإنسان الذي يرغب في الترقي .

وهناك البعض الآخر من العلماء يرى أنه يكفيه كى يقنع نفسه أن يهجم على السلوك الحاضر ، فينتقده ويُوئس الناس من حياة أسعد شدهم الأمل إلى إمكان تحصيلها ، والعمل على الوصول إليها وهم يعمدون الى ذلك معبرين عن دواخلهم النفسية التي لفها اليأس لفاً ، أو معبرين عن قصورهم عن رسم الحياة الأفضل أو عن القدرة على سلوكها إذا هي رسمت لهم .

ونحن بين الفريقين بين اليائسين والمشككين من ناحية وبين الذين يحاولون أن يفرضوا على المجتمعات نظرية فى الأخلاق ، قال بها أحد العلماء من الغابرين وتحمس بعض أبناء جيلنا لها ولا يقبل على الساحة سواها ، نحن بين هذا الفريق وذاك حياري لا ندرى ماذا نصنع ؟! أنستسلم لليأس القاتل أم نلقى بقيادنا الى صاحب نظرية ثبت بالتجربة قصورها أو فشلها والذي فرض علينا هذا الموقف بالطبع هو طبيعة الأخلاق ذاتها.

إن كلمة "أخلاق" تعنى أول ما تعنى ثورة على الحاضر ، وإقلاقا للألف والعادة أنها تعنى فى بعض جوانبها مدح الرقى بالفضيلة ، وتعنى في الجانب الآخر ذم الجمود أو التردي باسم الرذيلة.

إن الأخلاق إذن إزعاج للواقع المألوف ورفض لحالة السكون ، ودعوة للحركة على السلم الراقي والدرج الصاعد.

وإذا تأملنا كلمة أخلاق بعد هذه الملاحظة العامة لوجدناها تعبيراً عن نقطة التقاء يلتقي عندها الفكر و الإرادة الإنسانية.

مفهوم الأخلاق عند علماء اللغة :

تعريف الأخلاق

المعنى اللغوى : عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة ، عقلا وشرعا بسهولة سميت الهيئة ، خلقا حسنا ، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة ، سميت الهيئة : خلقا سيئا [1]

ويقول صاحب (مختار الصحاح) : الخلق بسكون اللام وضمها السجية ، ويقول الفيروزابادى فى (القاموس المحيط) : الخلق بالضم وبضمتين : السجية ، والطبع ، والمروءة ،

قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وإنك لعلى خلق عظيم) سورة القلم ، وقال بن عباس رضى الله عنهما : لعلى دين عظيم لا دين أحب إلى ، ولا أرضى عندى منه ، وهو دين الإسلام ، وقال الحسن : هو أو

وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله ، وينتهى عنه من نهى الله .

والمعنى : إنك لعلى الخلق الذى آثرك الله به فى القرآن ، وقيل التخلى عن الرذائل ، والتحلى بالفضائل [2]

[1] التعريفات للجرجانى ص: ١٣٦ ط دار الريان

[2] بصائر ذوى التمييز ٢/ ٥٦٦ ــ ٥٦٨

المعنى الاصطلاحى :

عرف(بن مسكويه)[١] الخلق بأنه : حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية .

وعرف(الغزالى)[٢]الخلق بأنه : عبارة عن هيئة فى النفس راسخه تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية

فالخلق منه ما هو طبيعى ، أى فطرى يولد الإنسان مزودا به كالحلم ، والحب ، والحياء ، كما ورد فى حديث أشبح عبدالقيس : (قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : إن فيك خلتين يحبهما الله ، قلت : وما هما يارسول الله ؟ قال : الحلم والحياء . قلت : قديما كان أو حديثا ؟ قال : قديما قلت الحمد لله الذى جبلنى على خلقين أحبهما الله)[٣]

إن مكارم الأخلاق أساس هذه الشريعة وعمادها وغايتها وغرضها وصفة سيد المرسلين وأفضل أعمال المتقين ولما سئلت السيد عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم : قالت (كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه)[٤]

وقيل يارسول الله (ما حسن الخلق ؟ فتلا (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) الأعراف ١٩٩ ثم قال : هو أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك)[٥]

وقال صلى الله عليه وسلم : (اللهم كما أحسنت خلقى فأحسن خلقى)[٦]

وقال صلى الله عليه وسلم (ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذىء)[٧]

---

[١] هو أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب المعروف بابن مسكويه توفى سنة ٤٢١ هـ أحد فلاسفة الأخلاق الإسلاميين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية .

[٢] هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى حجة الإسلام ، ولد سنة ٤٥٠هـ وتوفى سنة ٥٠٥ هـ صاحب المؤلفات الكثيرة ومنها (إحياء علوم الدين)

[٣] رواه البخارى فى باب الأدب المفرد ٢/ ٤٢

[٤] رواه أحمد والحاكم

[٥] رواه ابن مردويه بسند حسن

[٦] رواه أحمد ورواته ثقات

[٧٧] رواه أحمد والطبرانى

وقال صلى الله عليه وسلم :(إنكم لن تسعو الناس بأموالكم ، ولك يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق)[1]

وقال صلى الله عليه وسلم : (إنَّ اللهَ تعالى قسمَ بينكم أخلاقَكم ، كما قسمَ بينَكم أرزاقَكم ، وإنَّ اللهَ يُعطي على نيةِ الدنيا مَن يحبُّ ومَن لا يحبُّ ، ولا يُعطي الدينَ إلا مَن يحبُّ ، فمَن أعطاه اللهُ الدينَ ، فقد أحبَّه ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِه لا يسلمُ عبدٌ حتى يسلمَ قلبُه ولسانُه ، ولا يؤمنُ حتى يأمَنَ جارُه بوائقَه : قُلنا : يا نبيَّ اللهِ ، وما بوائقُه ؟ قال : غشمُه وظلمُه ، ولا يكسبُ عبدٌ مالًا حرامًا ، فينفقُ منه ، فيبارَكُ له فيه ، ولا يتصدَّقُ منه فيقبلُ منه ، ولا يتركُه خلفَ ظهرِه إلا كان زادَه إلى النارِ ، وإنَّ اللهَ – تبارَك وتعالى – لا يمحو السيِّئَ بالسيِّئِ ، ولكن يمحو السيِّئَ بالحسنِ ، إنَّ الخبيثَ لا يمحو الخبيثَ)[2]

فالأخلاق ليست فكراً فقط لأن الفكر تأمل لا تأثير له في الواقع إذا اعتبرناه بمفرده وليست إرادة فحسب ، لأن الإرادة وقود حركة ، والحركة تريد أن تكون منضبطة حتى لا تسير في أي مجال مختلف .

إن النقطة التي يجتمع عندها الفكر والإرادة هي ما نعبر عنه باسم "الأخلاق".

والإرادة في الحقيقة ترمز إلى أمور شاقة ، إنها ترمز إلى الفعل وترمز إلى مقاوم الفعل وترمز إلى الألم الناتج عن الفعل ومقاومته.

ومن أجل ذلك فإننا حين نتصور الأخلاق بهذا المعنى نتصورها فعلاً جاداً ، ونتصورها من ناحية أخرى تفكيراً تأملياً من خلاله يستطيع المرء أن يفهم الخط الذي ينبغي عليه أن يسلكه إن أراد أن يرتفع به من السفح الهابط إلى القمة السامقة .

ومن خلال تفكير المرء يجب عليه ، أن يعلم الخط الصحيح الذي ينبغي عليه أن يسلكه ومن أي المصادر يمكن له أن يستقى مبادئه ، وهل سيستقيها من إنسان مثله أم أنه سيستقيها من وحي منزل ، وعليه أن يعلم كذلك هل هو الذي سيحكم الواقع فيزعجه بسلوكه إلى ما هو أفضل ، أم أن الواقع هو الذي سيحكمه ويعيش طبقاً لمعطيات هذا

[1] رواه أبو يعلى والبزار من طرق أحدها حسن

[2] رواه أحمد وغيره عن طريق أبان بن ،سحاق عن الصباح بن محمد عنه – الترغيب والترهيب ٣٥٤/٣

الواقع ويكيف نفسه حسبما يريد منه ، لهذه الصعوبات جميعاً وغيرها يجد الإنسان نفسه في حالة من الحيرة ، هل يترك السلوك الخلقي بكامله إلى الحرية الفردية التي هي نقطة لدى بعض المفكرين في الغرب والشرق ، أم أن هذه الحرية لابد وأن يكون لها قدر من الإلزام الجاد يلزمها كي تقف عند الحد الأدنى من التصرف القيمي لا تهبط عنه ثم يرتفع الإنسان بعد الحد الأدنى مختاراً كي يحقق في سماء مجده الأخلاقي ما يميزه عن سائر أقرانه .

وفى هذين الجزأين الاختياري والإجباري أن أقرهما العقل حاجة إلى معرفة الملزم ومعرفة حجم المسئولية و معرفة الجزاء المترتب على الإلزام و المسئولية على السواء.

إذن إن الأخلاق من غير الإلزام و المسئولية و الجزاء لا يبقى لها حقيقة ولا تتمتع بماهية لمنحها حق الوجود ، لهذه الصعوبات وغيرها أردت أن أتناول الأخلاق النظرية في ضوء القرآن و السنة ليكون على الساحة نموذجاً لا يزدرى المقارنة التي تعقد بينه وبين غيره ، ولا يتنطع بالتأبي على الفكر والمعرفة ، ولكنه يطالب بالمباراة على أرض الواقع باعتبار أنها هي المحك العملي الذي يميز الخبيث من الطيب ، فيظهر الطيب في صورة السمو الكامل ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ثم يرمى به في مهاوى الازدراء والاحتقار.

أريد في هذا المعترك العلمي أن نلفت النظر إلى بناء أخلاقي موجود في الإسلام فعلاً مصدره الكتاب والسنة ومظهره الواقع التاريخي والتطبيق العملي في صورة مجتمع نموذجي يبرز المثال ويشرح الجانب النظري شرحاً في غاية الكمال.

تحديد الدراسات السابقة :

وبالبحث تبين لى أن هناك بعضمن الدراسات السابقة فى هذا الموضوع وعلى رأس هذه الدراسات دراسة الشيخ / محمد عبدالله دراز التي كتبها ابتداء بالفرنسية في ١٩٤٧، تحت عنوان (الأخلاق في القرآن) والتي طرح فيها التساؤلات الفلسفية الأخلاقية الشائعة في حقل

الأخلاق في أوروبّا و قد أثمرت دراسة الشيخ دراز تكوين نظرية أخلاقية إسلامية كاملة ذات العمد الخمس للنظرية الأخلاقية الغربية: الإلزام والمسؤولية والجزاء والنيّة والجهد.
ثمّ توالت دراسات أخرى تدرس "تاريخ الأخلاق" عوضًا عن بناء "الأخلاق"؛ حتّى قدّم د. طه عبد الرحمن دراسته في نقد الحداثة الغربية (سؤال الأخلاق، ٢٠٠٠) التي تهدف إلى تقويض مسلمّات الحداثة الغربيّة

منهج البحث وطريقته :

وقد اعتمدت فى بحثى هذا على منهجين المنهج المركب والذى ركبت فيه عدة عدة مناهج لأصل إلى تكوين نظرية الأخلاق الإسلامية أولها طريق المنهج العقلى التى يتبعها الفلاسفة وثانى هذه المناهج هو المنهج الاستنباطى الذى يقوم على استنباط الفروع من الأصول، حيث استنبطت من نصوص القرآن والسنّة معاني وتوجيهات شكّلت أصولاً، ثمّ فرّعت على هذه الأصول قواعد ومفاهيم أخلاقيّة.

أهمية البحث للمكتبة الاسلامية :

ومن هنا تكمن أهمية البحث فى أن نلفت النظر إلى بنا ءأخلاقى موجودا فى الإسلام فعلا ومصدره الكتاب والسنة ومظهره الواقع التاريخى والتطبيق العملى فى صورة مجتمع نموذجى يبرز المثال ويشرح الجانب النظرى شرحا فى غاية الكمال
ولا أدعى فيما أسطر من صفحات أنى قد وفيت الموضوع حقه وإنما هي لفتة ألفت بها أنظار المتخصصين والكاتبين إلى تشييد هذا البناء فى صورة يرونها أقرب إلى الكمال مما كتبت أو سطرت ، وصعوبة البناء الخلقي الذي نحن بصدده ترجع إلى أننا نعمد إلى بناء نظرية متكاملة نتحرى لبناتها من نصوص الكتاب والسنة . والكتاب والسنة كما نعلم لم يعمد واحد منهما إلى بناء نظرية أخلاقية على نحو ما يعمد إليه الفلاسفة أو علماء الاجتماع حين خصصوا أجزاء من أبحاثهم يتحدثون فيها عن نظرية في الأخلاق يتحدثون عنها أو يبنونها ، وإنما الإسلام بالدرجة الأولى يرعى السلوك فيحوله على درج رقى

الكمال إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان على مدراج الكمال من غير اهتمام بتأسيس قواعد لنظرية أخلاقية مجتمعة في مكان واحد،وإن كان المرء يستطيع أن يجمع من النصوص ما يكشف له عن بناء أخلاقي في القرآن والسنة إذا هو أراد أن يكشف على البناء الأخلاقي في القرآن والسنة.

تحليل الفكرة الأخلاقية :

يختلف مدلول الأخلاق ومفهومها عما عداها من المفاهيم لتميز موضوع بحثها ومجال دراستها.

فنحن حين نستعمل كلمة أخلاق توحي هذه الكلمة بادئ ذي بدء بأننا أمام مسائل تتصل بالسلوك وإنسان مسئول عن الالتزام بهذه المسائل ، وجزاء يترتب على هذه المسئولية ، ومدى الالتزام بها ومشروع يضع من القوانين والضوابط ما يجعل العملية السلوكية تسير في خطها الصحيح .

إن هذا المركب الضخم يتصوره الإنسان في ذهنه بتمامه وكماله وبتعقيداته وتداخلاته ، حين يقرع سمعه كلمة أخلاق.

وإذا أردنا أن تكون المسألة أكثر وضوحاً فإنه بإمكاننا أن نتصور مفهوماً آخر على سبيل المقارنة بحيث يكون هذا المفهوم الآخر متميزاً في معناه عن مفهوم الأخلاق بمعنى ، أنه ليس له ما لمفهوم الأخلاق من تعدد المعاني وتداخلها .

فالإنسان حين يسمع كلمة الجمال لا يجد في ذهنه نفس المفهوم الذي يوحى إليه به كلمة أخلاق .فمفهوم الجمال يضع الإنسان مباشرة أمام شئ ترتاح إليه الحواس ، أو يتجاوب معه الوجدان من غير أن يكون هناك حافز ، أو دافع لإيقاع حركة إيجابية ، أو اتخاذ موقف محسوس في هذا الميدان[١] .

وعلى سبيل المثال فإن الإنسان يستطيع أن يجول بخاطره أو بناظريه في منظر خلاب في الطبيعة ، كأن يرى الشمس المنعكسة وقت الأصيل على صفحة الماء ، أو القمر

[١] الجمال فى المنظور الإسلامى : د/ عبد الكريم أحمد عاصى المحمود

الذي يرسل بلونه الفضي وقت اكتماله على صفحة نهر في ليلة صافية وهو يستطيع أن يجول بناظريه فيتأمل القبة الزرقاء فوق رأسه وهى مرصعة بالنجوم لا يحجبها عنه حاجب ، وهو يستطيع أن يتأمل المساحة الخضراء والنسيم يداعب أوراقها مداعبة خفيفة يتراءى أمامه على أعلى درجات السحر الذي يخلب عليه ويأسر فؤاده ،

وهو يستطيع أن يجد نفسه أمام لوحة متقن ينقل بريشته ما تصوره من مناظر وما جاشت به نفسه من عواطف ، يستطيع المرء أن يتأمل هذا وذاك وأن يسعد لهذا ويسر لذلك ولكنه لا يجد نفسه مدفوعاً بالاختيار أو بالاضطرار إلى محاكاة هذه المناظر أو بعضها بحيث لو تقاعص عن هذه المحاكاة لآلمه ضميره ، وإنما هو فقط يكفيه أن يستمتع بهذه المناظر ويسر لها و أن يرتاح إلى ما يرى و يسمع دون أن يشعر في داخله بوجوب محاكاة ما يرى أو يسمع .

وحين نقابل هذه المواقف بمواقف أخرى متميزة عن هذه المواقف يتضح لنـا الفرق بينها بغاية الجلاء فالمرء حين يرى غريقاً يقاوم الأمواج ،ويصارع الموت وهو يستطيع أن ينقذه من الغرق لا يكتفي بهذا المنظر فيألم له أو يستمتع به ، وإنما سيجد نفسه مدفوعاً بدافع ما إلى محاولة إنقاذه ، وكذلك الأمر حين يرى فقيراً قد عضه الجوع بنابيه القاسيتين وهو يملك أن ينقذه أو الفقير الذي لا يملك قوت يومه فضلا على الإنفاق على أولاده وقل ، مثل ذلك حين يرى الإنسان من يتعرض إلى حريق ، أو كارثة وغير ذلك مما يشابه تلك الفعال أو تلك الظواهر ، إن المرء سيجد نفسه أمام تلك الأشياء أو ما يشابهها مدفوعاً إلى عمل شئ قل هذا الدافع أو عظم لكنه موجود .

وهذا فرق من عشرات الفوارق التي تميز بين موقفنا من هذه الطائفة الأخيرة من الظواهر ، وموقفنا من الطائفة السابقة عليها .

إن الطائفة التي ذكرناها أولاً تكون هي ومثيلاتها موضـوع **علم الجمال** .

أما الطائفة الثانية ، فهي تكون هي ومثيلاتها موضوع **علم الأخلاق** .

إن علم الأخلاق إذن لا يدرس مواقف سلبية كما يفعل علم الجمال ، ولا يكتفي بانفعال الباطن انفعال الاستحسان أو الاستهجان ، و إنما هو يدفع الإنسان دفعاً إلى أحداث حركة فى السلوك مؤثرة بقدر ما يطيق المرء أو يستطيع[١] .

وهذا العنصر المتميز في العملية الأخلاقية ، هو ما نسميه **بالالتزام أو (الإلزام)** . وليس الإلزام وحده هو العنصر الذي يقوم عليه بناء الأخلاق ، وإنما يكون هذا العنصر عديم القيمة ما لم يكن هناك الى جواره عنصران آخران :

أحداهما : المسؤلية .

وثانيهما : الجزاء .

فالكائن المسؤل يكون ملزما في حدود مسئولياته من قبل الجهة التى تملك إلزامه ، ثم هو يسأل فى حدود قواعد معينة وأطر محددة عن مدى التزامه بما ألزم به.

وفى حال تقصيره أو أدائه لمسئولياته يجب أن يوقع عليه أوله الجزاء المناسب لمدى التزامه أو تقصيره.

وبالإلزام ، والمسئولية ، والجزاء يتكامل البناء الخلقي تكاملاً ذاتياً[٢] . ولا يبقى له إلا الأشياء الخارجية التي تحوط بالبناء إحاطة الحركة أو الصيانة.

والذي يهمنا الآن ، وبالدرجة الأولى هنا أن نتتبع عناصر ، هذا البناء الخلقي للأخلاق النظرية بشيء ما من التفصيل من منظور إسلامي في ضوء القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة.

[١] مبادئ في نظرية الشعر والجمال أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

[٢] دستور الأخلاق في القرآن د/ محمد عبدالله دراز نقله إلى العربية د/ عبد الصبور شاهين . ص٢١ وما بعدها.

الإلزام

والإلزام هو العنصر الأول من العناصر الثلاثة التي سبق لنا تحليلها .

وليس هناك خلاف بين المحللين على جميع المستويات فى أن المرء يشعر حين يوضع فى موقف خلقي ، أنه ملزم بإحداث حركة أخلاقية أياً كان نوع هذا الإلزام ، ولكن العلماء مختلفون فيما بينهم حول مصدر هذا الإلزام منذ أن بدأ البحث في الأخلاق النظرية وإلى الآن ،فمنهم من يرى أن مصدر الإلزام الخلقي هو عقل الإنسان التحصيلي ، بمعنى أنهم يربطون بين المعرفة والأخلاق ، فالأخلاق عندهم كلمة جامعة تضم الخير والشر وهم يربطون بين الخير والعلم وبين الشر والجهل ، والفضيلة إذن عندهم فى النهاية علم والرذيلة جهل ويستحيل عند هذا الفريق أن يكون الإنسان عالماً بالخير ويتركه كما يستحيل بنفس الدرجة أن يكون الإنسان جاهلاً بالخير و يفعله .

ومن أوائل هؤلاء الذين تحمسوا لهذا الرأي ونصبوا رايته هو (سقراط اليوناني) .

ومؤرخو فلسفة سقراط يجمعون على نسبة هذا الرأي له ولا يكادون يختلفون .

ومن المعروف بداهة أن العلم الذي يقصد إليه سقراط ويربط بينه وبين الفضيلة إنما هو العلم بخير الإنسان الأسمى ، لا مطلق علم وكفى .

وكان من الممكن من خلال النظرة السقراطية أن يعترض عليه بأنه أهمل الإرادة الإنسانية حيث لم يتحث عن الحرية بشكل كاف ، لولا أن سقراط حدد موقفه من هذه القضية على أساس أن الحرية الإنسانية تأتى تابعة للعلم بخير الإنسان الأسمى.

غير أن التخريج لمذهب سقراط على هذا النحو الذي تعتبر الحرية الإنسانية تابعة من التوابع ربما لا ينقذ فكرة سقراط عن الأخلاق من التحديات أو النقد اللاذع ، ذلك أننا لا نجد كثيراً من الناس على هذا الواقع ، والذين قدر لهم أن يكونوا على درجة كافية من العلم أنهم قد تخلصوا من عبوديتهم للشهوات وليس هناك من سبب إلا أن نظرية سقراط ليس فيها من الجانب العملي ما يحمل الإرادة الإنسانية على تحمل مسئولياتها .

ونحن نميل إلى هذا الرأي القائل بأن الجانب العملي فى نظرية سقراط الأخلاقية يرجع إلى سقراط نفسه ، حيث استطاع أن يحمل نفسه بشكل متميز على أن تلتزم بمبادئه ، وليس

أدل على ذلك من أنه قد شرب السم مختاراً وفارق الحياة بإرادته ، حتى لا يعفي عار مخالفة القانون المعمول به فعلاً ، إلا أن غير سقراط ليس ملزماً بقدر كاف حين يتصور الخير أن يفعله وحين يتجنب الشر ، لأنه قد تصور خطره .

وهناك نقطة أخرى قد يثيرها العقل الإنساني حول علاقة الأخلاق النظرية عند سقراط بالمنفعة العملية للإنسان ، وقد حاول د–هـ – سد جويك أن يتحمل مسئولية الدفاع عن سقراط في هذه النقاط بالذات فهو يقول : (وينبغي أن نلاحظ أن معرفة الخير التي يرمى إليها سقراط ، يُساء فهمها إن أخذناها على أنها معرفة للفضيلة مميزة من المصلحة فإن قوة حجته تتوقف على ما يقوم فى فكرة الخير الوحيدة من اتحاد وثيق بين نظريات الفضيلة والمصلحة ، ومن المحقق أن سقراط لم يخترع هذا الاتحاد بل وجده – كما وجده السوفسطائية – فى ثنايا التفكير الشائع في عصره[١].

ومهما دافع المدافعون عن موقف سقراط ، فإننا سنجد دائماً واقع الإنسان ليس في صالح هذه الفلسفة السقراطية ، إذ أننا نجد الكثير من الفضلاء لا علم لهم بالخير الأسمى ، ونجد الكثير مما يفارفون الرزيلة على أعلى درجات العلم بخير الإنسان الأعلى .

ويتبين من هذه المقارنة أن العلم بالفضيلة لا يكفى وحده لإلزام صاحبه بأن يسلك سلوك الفضلاء.

وفى قراءتنا للفلسفة اليونانية فى فجر التاريخ ، وجدنا مذاهب تتحدث عن الأخلاق حديثاً فيما يتعلق بالإلزام أقل درجة من الحديث الذي تحدثه سقراط في هذا المجال .

فالمدرسة الكلبية ، مثلاً لا ترى دافعاً للأخلاق أكبر من دراسة سير أصحاب الفضيلة ، فالوقوف على سيرهم يكون سبباً كافياً في دفع الإنسان نحو سلوك هذا الطريق والسير فيه إلى منتهاه.

نظرة أفلاطون إلى الأخلاق التي تحمل الإنسان إلى عمله الأخلاقي على محاكاة المثال الكامل للأخلاق ، والذي لا وجود له إلا في عالم المثل لا يكفى هو الآخر لحمل الإنسان على أن يكون فاضلاً ، وأقل من هذا درجات ما نراه عند دعاة مذهب اللذة.

[١] المجمل فى تاريخ علم الأخلاق ترجمة د/ توفيق الطويل ، عبد الحميد حمدى ج١ ص١٠٠.

وننتهي من هذا كله إلى أن العصر اليوناني بأكمله لم نجد فيه مصدراً صالحاً للإلزام الخلقي ، إلا أن العلماء فيما بعد قد حاولوا أن يبحثوا عن مصدر الإلزام في الأخلاق بحثاً أكثر جدية وتطوراً ونختار من هذه المباحث المتأخرة بعض وجهات النظر التي تصلح لتجلية الموقف ، وتساعد على تصور كامل لطريقة التفكير فى الأخلاق.

(أ) – وأول نموذج نختاره هنا ، هو ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسي – هنري برجسون – حين أراد (هنرى برجسون) أن يبحث عن العنصر الهام فى الأخلاق وهو الإلزام فى نقطتين أحدهما : المجتمع بعوائده وما لها من قوة السيطرة على توجيه الأفراد ، وثانيهما : الرغبة فى محاكاة المثل الأعلى وتفصيل ذلك أن الإنسان عند برجسون أحد نوعين النوع **الأول** : يمثل الدهماء وعامة الناس والكافة من البشر و هذا النوع يلتزم بعوائد المجتمع لا يملك لها رداً و المجتمع يسيطر عليه بعوائده ، ولو أن الفرد استطاع فى لحظة انهزام أن ينفلت من عوائد المجتمع ويشذ على نظامه لا يلبث ملياً ، ثم يعود إليه مجبراً ، وينطوي تحت هذه العوائد ويستسلم لها من غير أن يكون له اختيار في أن يفارق هذه العوائد أو يعود إليها.

أما النوع الثاني : من أنواع الإنسان منهم ، أولئك العباقرة والمتميزون وهم أقلية في كل مجتمع ولكن هؤلاء لا يخضعون لعوائد المجتمع ، ولا يلتزمون جبراً بما تعوده الجماعة التي يعيش فيها من نظم وآداب في السلوك ، ولكنه يتصور الخير الأسمى والمثل الأعلى فيعشقه ويلقى رغبة في محاكاته .

وخلاصة القول أن الإنسان إما أن يكون مقهوراً للجماعة التي يعيش فيها ، أو محمولاً بالشوق رغبة في محاكاة المثل الأعلى .

و هذا التحليل الذى ذهب إليه ، برجسون قد نأى به عن طبيعة الفعل الخلقي ، وعن مفهوم النظرة الأخلاقية الأمر الذي عرضه إلى انتقادات قاسية .

وخلاصة الانتقادات الموجهة إليه ، أنه بتحليله هذا لايخلو عن أحد أمرين : إما أن يكون واصفاً لواقع يعيشه مجتمع بعينه وفى هذه الحال لا يكون متحدثاً عن الأخلاق النظرية أو (النظرية الأخلاقية) بقدر ما يكون متحدثاً عن درب من السلوك الأخلاقي .

وحتى فى هذه الحال سيكون وصفه ناقصاً ، لأنه قسم الناس إلى فريقين أحدهما: متأثر بعوائد المجتمع ، و الآخر يحمله الشوق إلى محاكاة المثل الأعلى وأغفل فى هذا التقسيم عنصراً ثالثاً كان ينبغى أن يدخله في حسابه ، وهو رغبة الإنسان في تحقيق ذاته ، ودور هذا العنصر الذاتي فى الإنسان الفرد من ناحية ، وفى المجموع من ناحية أخرى .

أما إذا كان برجسون يقصد إلى تحليل النظرية الأخلاقية ويحاول أن يكشف عن عنصر الإلزام فيها فإن خطأه فى هذا المجال يكون أكثر جسامة وأشد نكراً ، ذلك أنه من المعروف بداهة أن الأخلاق نقطة تعبير عن التقاء الإرادة والحكمة ، وهو قد أغفل الإثنين معاً فالإنسان عنده لا إرادة لديه ولا حرية ولا اختيار له فى حركة يريد فعلها أو يريد الامتناع عنها فهو مجبر مقهور إما أن يقهره المجتمع بعوائده ، أو تقهره العاطفة فيتجه حسبما تمليه عليه .

أما الحكمة أو التفكير والمعرفة فهذا ما لم يتحدث عنه (برجسون) وهو يتحدث عن عنصر الإلزام ، وكأنه أمر لا اعتبار له عنده .

ونحن حين نستحضر صورة برجسون ونحن ندرس المجتمع الذى نزل القرآن فيه ، نجد القرآن الكريم قد هاجم بغير هوادة هاتين النقطتين التي اعتبرها برجسون مصدرين للإلزام بلا منازع ، فهو يهاجم المصدر الذي اعتمد عليه العباقرة فى التحليل الذي ذهب إليه برجسون واعتبره هوى جامحاً ينبغي التخلص منه **((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))**[1] **((وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ))**[2] **((فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا))**[3].

[1] سورة الجاثية : الآية (٢٣)
[2] سورة (ص) : الآية (٢٦)
[3] سورة النساء : الآية (١٣٥) د / عبدالله دراز ص٢٣ و ما بعدها

وأما الذين هم من العامة عند برجسون وانقادوا إلى تقاليد المجتمع بغير اختيار فقد هاجمهم القرآن الكريم فى عصر المبعث ولا زال القرآن ناطقاً بهجومهم .((قالوا: **إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**))[1]

((**أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**))[2] وهكذا يتبين أن هذا التحليل على نحو ما ذكره برجسون يعصف بقاعدة الأخلاق من أساسها بدلا من أن يحاول أن يعطى بنائها ويرسخ قواعدها[3].

(ب)- وهناك رأى آخر أكثر شهرة من هذا الرأي الذي ذكره "برجسون" و إن كان هذا الرأي لم يسلك سبيلاً واحداً وإن كانت قد تعددت به السبل انحرفت به الطرق إلى منحنيات متعددة ، إلا أن هناك نقطة تجمع شتات هذا الرأي وتجمعه عند عنصر بعينه وجماع هذا الرأي في لبابه ، أن العقل الإنساني هو الذي يستطيع أن يكون مصدراً للإلزام باعتبار ، أنه هو العنصر المفكر ، وهو الذى يستطيع أن يضع ضوابط السلوك ، ويقنن بطريقة تفوق آداب المجتمع وتخيل المتخيلين وشوق المشتاقين.

وقد تحمس لهذا الرأي كثيرون منذ القدم وقد تكاثروا في العصور المتأخرة ، خاصة بعد أن دخلت الفلسفة إلى معترك تنظيم المجتمع ومحاولة المساهمة برأي في المسألة الاجتماعية التى طرحت نفسها بإلحاح على عقول المفكرين منذ عصور الظلام في أوروبا .

ولكننا حين نناقش هؤلاء الذين يعتبرون هذا العقل كافياً وحده لأن يكون مصدر إلزام خلقي ، لن نجد صعوبة في استحضار المعضلات الكثيرة المتناثرة هنا وهناك والتي يصعب على أصحاب هذه النزعة العقلية أن يجتازوها.

ومن أوائل هذه الصعوبات العقلية ، هي تلك المتمثلة في ترجيح عقل على عقل ،إذ أن كل إنسان عاقل سيدعى لنفسه حق التشريع ، وكل إنسان عاقل سيربأ بنفسه عن أن ينقاد إلى غيره ممن يشاركونه هذه الميزة ، إذ أن من حقه أن يقول : لماذا أضحى باقتناعي

[1] سورة الزخرف : الآية (٢٣)
[2] سورة البقرة : الآية (١٧٠)
[3] راجع دستور الأخلاق في القرآن

في سبيل اقتناع غيري ولماذا أختار لنفسي أن أكون في موضع المنقاد ولما لا أكون في موضع القائد .

وليست هذه هي المشكلة الوحيدة التي ستقابل أصحاب هذا الرأي ، إذ أننا على مستوى الواقع قد تقابلنا بعض المشكلات التي يصعب حلها والتي نستطيع أن نوضحها هنا بمثلين ، أحدهما يصور إنساناً خرج إلى الغابة يريد أن يصطاد ، وبينما هو يفعل ذلك إذ أصاب برصاصة إنساناً فقتله.

وفى مثل هذه الجريمة سيحتار العقل أمامها بين أن يعذر القاتل جهله ويعفيه من المسئولية ، وبذلك يضيع دم المقتول من غير أن يكون له جريرة فى ذلك وبين أن يحمل القاتل نتيجة عمله ويعتبره آثما ويأخذ المقتول بحقه ، وحينئذ يكون قد حمل القاتل نتيجة عمل لم يقصد إليه ، و القصد أو الإرادة عنصر هام في تحديد المسئولية الخلقية والقانونية و ما يترتب عليهما من آثار.

ولنا أن نقول الشئ نفسه فى مثال آخر: مثال رجل ذهب إلى الشاطئ ليصطاد فألقى بشباكه ليخرج رزقه من الماء فخرج في شباكه طفلاً كان قد سقط في الماء ، فأنقذته هذه الشباك من الغرق دون أن يقصد الصياد إلى ذلك فهل يستطيع الإنسان بالعقل والحالة هذه أن يقول أن الصياد قد قارف عملاً أخلاقياً ، وهو لم يقصد إليه أم أن الصياد يمكن أن يقال أنه ليس بعمله هذا قد قام بشئ ذي بال في مجال الأخلاق على أساس أن عنصر الاختيار أو الإرادة المؤثر كان غائباً عن هذا العمل كله.

إذا كان العقل البشرى في هذين المثالين لا يستطيع أن يوازن بين الأمور موازنة صحيحة فهو بالتالي لا يصلح أن يكون مصدر إلزام ، إذ أنه عاجز عن بناء القاعدة وعن إيجاد المعيار الذي يمكن الاستناد إليهما في العملية الأخلاقية ككل.

وفى كتاب – لجان جاك روسو – يثير فيه الكاتب مجموعة من القضايا تتعلق بالتشريع أو تأسيس القواعد التي يمكن أن نحمل الإنسان عليها ، ونطالبه بالتزامها[١].

[١] التربية : لجان جاك روسو

ومن هذه الصعوبات عجز العقل عن الإحاطة بما في داخل الإنسان الفرد من عواطف وغرائز وتنظيم هذه الغرائز والعواطف والتنسيق بينهما في ممارسة للأدوار التي تطلب هذه الغرائز والعواطف ، أن تمارسها ولا تسمح الظروف بممارستها جميعاً في وقت واحد .

ومن بين الصعوبات أيضاً التي تقابل العقل البشري ، وهو يتصدى إلى التشريع وتأسيس القواعد وجوب الإحاطة برغبات الأفراد داخل المجتمع الواحد ومعرفة التضارب فيما بينها ، والقدرة على رفع هذا التناقض بين رغبات الأفراد ، ومتطلباتهم داخل الجماعة الواحدة.

و بالإضافة إلى هذا كله لابد وأن يكون العقل قادراً على استشراف المستقبل البعيد والقريب لتلبية حاجات المستقبل ، حتى لا يضطر العقل المشرع من حين لآخر أن يغير فى التشريع ويرقعه كل ما أحتاج الأمر إلى الترقيع .

ومهما كان الرأي الذي توصل إليه جان جاك روسو ومر افقوه ومهما كانت النتائج التي اقترحت للتغلب على هذه المعضلات ، فإننا نقول بحزم وإيجابية أن هذه الصعوبات وحدها كافية لوضعنا على مشارف التسليم ، بأن العقل وحده لا يكفى أن يكون مصدراً للإلزام .

مصدر الإلزام الخلقى فى الاسلام :

وحين نقترب من مصادر الإلزام الأخلاقية فى الإسلام ونتأمل النصوص الدالة على ذلك نجد مفاجئة عجيبة لا يتوقعها غير المسلمين ، خصوصاً أولئك النفر الذين خضعوا لديانات أرضية ردحاً طويلاً من الزمن ، أو أولئك النفر من الناس الذين عاشوا في مجتمعات كان أهلها يدينون بديانات لها أصل سماوي ، لكنها حرفت واستغل أرباب هذه الديانات فيها موقفهم الديني لبسط سلطانهم على مواطنيهم . أقول أن هذين الفريقين يفاجئهما نصوص الإسلام من القرآن الكريم و السنة النبوية المشرفة التي تتحدث عن مصادر الإلزام الأخلاقي ، وسبب هذه المفاجئة أن الإسلام يركز على العقل ويهتم به غاية الاهتمام حتى يظن الظانون لأول مرة ويعتقد المحللون بادئ الرأي أن الإسلام بصدد أن يجعل العقل هو مصدر الإلزام الأخلاقي دون سواء.

ثم هي من جهة أخرى تركز على العاطفة الإنسانية وتهيجهاً في داخل الفرد على نحو ما يوحى إلينا به قول الحق في موقف خلقي معين **(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)**[١] إلى الحد الذي يفهم معه البعض أن النصوص الدينية فى الإسلام تركز على العاطفة ولا علاقة لها بالعقل على أي نحو من الأنحاء[٢].

والشيء الذي يلفت النظر أن بعض المفكرين الإسلاميين قد اهتم بالعقل وركز عليه ، والبعض الآخر قد اهتم بالعاطفة وتجاوب معها.

غير أن الذي ينبغي ألا يفوتنا هنا أن ننوه إلى ما تنبه إليه ابن حزم حيث قال إن المنهج الإسلامي فى تأسيس القواعد سواء في العقيدة أو في الفروع يعتمد على العاطفة من ناحية ، وعلى العقل من ناحية أخرى ، فهو منهج متكامل يناسب طبائع الناس المختلفة ويناسب جملة الإنسان على العموم.

فالإنسان مكون من عقل وعاطفة ، والإسلام يخاطب فيه العقل ويخاطب العاطفة ، فمن تغلب عقله على عاطفته وجد في القرآن الكريم والسنه النبوية المطهرة ما يلبى حاجته ومن تغلبت فيه العاطفة وجد لها فى المنهج التشريعي ما يتجاوب معها لأن المنهج الإسلامي لا يتوجه بالخطاب إلى طائفة بعينها[٣].

وخطأ أصحاب المذاهب الأخلاقية ، أنهم عاجزون بحكم بشريتهم عن الإحاطة بجميع منحنيات الإنسان التي تضمها شخصيته المتكاملة وهم عاجزون بالتالي بحكم بشريتهم كذلك عن تلبية أشواقه وتفكيره فى وقت واحد سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أو مستوى الجماعة ، الأمر الذي يلجئنا إلى التسليم ، بأنه لا يصلح أن يكون مصدراً للإلزام إلا من يملك أن يتخطى هذه الصعوبات ، ويستطيع أن يلبى هذه الرغبات وليس ذلك إلا لله عز وجل ، ولقد أوشك كتاب "العقد الاجتماعي" الذي أرشدنا إليه فيما قبل أن يتوصل إلى هذه

---

[١] سورة : الحجرات :لآية: (١٢)

[٢] قرأت في الأيام الأخيرة كتاباً صدر في العربية لمؤلفه (تطائر) وأشباه يتهمون الإسلام بأنه لا يهتم بالعقل وإنما يهتم غاية الاهتمام بدغدغة العواطف على حد قول (المؤلف) وإثارة الوجدان وهو يشيد أساس النظام فى المجتمع المسلم – والشئ العجيب أن صاحب الكتاب كما صرح هو يبذل طاقة جهده وسيتفرغ وسعه ويستعمل جل أساليب البراعة فى التزييف على النصوص وتحميلها ما لا تحتمل ((راجع كتاب الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل)) د/فؤاد زكريا ط : دار الفكر المعاصر.

[٣] راجع أبن حزم – الفصل حـ٤ ص: ٣٧ ، ٣٨ ط : المثنى ببغداد ، الخانجي بمصر .

النتيجة بتحليلاته الفكرية لولا تحفظاته التي وضعها وهي تتعلق كلها بأنه يفقد الوسيلة التي تربطه بالله عز وجل و تتلقي عنه من غير أن يكون هناك خوف من التزييف أو محاولة الإخلال وهذه الثغدة قد حاول كثير من المؤلفين القدامى و الحديثين سدها بأسلوب لو اطلع عليه (روسو) وغيره و توفرت عندهم درجة كافية من الإخلاص ، لوجدوا الطريق الصحيح إلى الله عز وجل[1] .

العقل ووظيفته فى الاسلام :

من خلال هذا التحليل ، لمعترض أن يعترض حيث أن الأمر يبدو أمامه يحجبه شئ من الغموض حول مصدر الإلزام الخلقي وما إذا كان هو العقل ، أو هو الله عز وجل الذى يخاطب العقل ويشيد به.

والمتأمل في نصوص الشرع الحكيم لا يجد صعوبة في فهم هذا الموقف .

فالعقل في نظر الإسلام لا يختلف عنه فى نظر جميع المفكرين الذين يفهمون طبيعة العقل فهماً جيداً ، إذ أن الإسلام يخاطب العقل على طبيعته فلا ينتقص منه شيئاً ، ولا يضيف إليه أمراً فوق قدرته وأعلى من إمكاناته .

والعقل كلمة جامعة تطلق على تلك الملكة في الإنسان ذات الوظائف المتتعدة ، فهذه الملكة بوصفها عقل ، لها وظيفة الحكم و التقدير ولها وظيفة التأمل و النظر ، ولها وظيفة الاستقراء والاستنباط ، ولها سلطة حماية الفضيلة وحفظها من أن تضرب فى تيه الرذائل وأدرب السقوط والهبوط .

وهذا الملحظ الشامل وجدناه فى بعض الدراسات الحديثة التى نقرؤها بغاية الإحترام والتقدير ، ومن بين هذه الدراسات بحث كتبه صاحبه لتقديمه إلى ندوة الحضارة الإسلامية فى بروكسل التي عقدت فى الفترة من ٨ إلى ١٠ نوفمبر ١٩٨٣م – وفى هذا البحث إشارة إلى شمولية العقل بخصائصه من ناحية ، وإلى إهتمام الإسلام به مبرزا تلك الطبيعة فيه من ناحية أخرى.

[1] راجع " العقد الإجتماعي " ص١٢١ وما بعدها ، و التفكير الفلسفي في الإسلام د/ عبدالحليم محمود طـ١ ص٤٦ .

وسأجتزئ من هذا البحث كلمات تجلى هذا الموقف على إيجاز كلماتها .

يقول الأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق صاحب الدراسة المشار إليها في إحدى حواشيه ((العقل من حيث مدلوله اللفظي العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع عما هو محظور ومنكور ، ومن هنا كان إشتقاقه من مادة عقل التى يؤخذ منها العقال .وفي ذلك يقول الجاحظ: ((وإنما سمى العقل عقلاً لأنه يزم اللسان ويخطمه عن أن يمضى فرطاً فى سبيل الجهل الخطأ والمضرة كما يعقل البعير)) وللعقل خصائص عديدة :منها أنه ملكة الإدراك التى يناط بها الفهم والتصور وإدراك الأمور ، ومنها أنه ملكة الحكم فهو يتأمل فيما يدركه ويقلبه على جميع وجوهه ، ويحكم عليه ويتصل بملكة الحكم (ملكة الحكمة) أيضاً وذلك إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغى له أن يطلبه وما ينبغي له أن يأباه ، ومن خصائص العقل أيضاً : الرشد وهو تمام النضج ، فالعقل الرشيد ينجو به الرشاد من الوقوع في مهاوى النقص والاختلال)[١].

والمتأمل فى طبيعة العقل على هذا النحو لا يستطيع أن يسند إليه وظيفة الإلزام ، فوظيفة الإلزام فى حقيقتها تقتضى بالدرجة الولي وضع القاعدة التى يكلف بها الإنسان ، ثم تقتضى من ناحية أخرى التوجه إلى الإنسان أوالمكلف على العموم بهذه القاعدة للإلزام بها على طريقة الأمر والنهي أو الاستحسان ، باعتبار نوع التكليف وإرادة المكلف به.

والمتأمل فى طبيعة العقل على نحو ما ذكرناه ، يجد من ناحية أخرى أن طبيعة العقل تأبى إهماله واعتباره من سقط المتاع فيما يتعلق بعملية الإلزام .

ولذا نجد نصوص الشرع الحكيم قد حسمت هذه المسألة المزدوجة بأسلوب لم نجد له نظير في غير الإسلام من التشريعات التي تهتم بقضايا الإنسان ، فالإسلام يعتبر المصدر الوحيد للإلزام (هو الله). ولكنه يتوجه إلى العقل بالخطاب فتدخل إليه القضية التشريعية المذمع إلزام الإنسان الكلف بها ، ويطلب من العقل هضمها وفهمها والوقوف على أصولها وفروعها ، والتعرف على دوافعها ومقاصدها حتى يظن العقل فى لحظة من

[١] راجع " دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي " د/ محمود حمدي رقزوق : مطبعة وهبة ص(٦) حاشية .

اللحظات أنه هو واضع هذا التشريع لفرط قناعته به ، وأنه هو مصدر هذا الإلزام لشدة اقتناعه بجزئياته وتفاصيله ووقوفه على أسراره وحكمه.

وبهذه الطريقة يأمن العقل من الوقوع فى الخطأ ، لأن مصدر إلزامه لا يأتي له أن يخطئ ويحافظ على أهم وظائفه ، لأنه قد مرت القاعدة الإلزامية من خلاله فأنضجها وتوجه بها إلى الإرادة ، لكي تختار تحت رعاية من مسئوليته وبتوجيه من حكمته وعلى أساس من موازناته الدقيقة ، وهنا تكون نقطة الالتقاء بين العقل و الإرادة في مأمن من الخطأ والزيغ **((وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ))**[1]

إعتراض ملح :

وقد يظن الإنسان أنه بعد هذا التحليل وبعد هذه الأضواء الكاشفة عن موقف الإسلام من العقل أن الإنسان قد اطمأن إلى سلامة موقفه ، باعتباره مسلم يأخذ بمبدأ أن الله هو وحده مصدر الإلزام في الإسلام إلا أن هذا الاطمئنان يزعجه هذا الخلاف بين الأئمة حول مصادر التشريع في الإسلام ، وهذا اعتراض وجيه حيث أنه لمن الأشياء التي يمكن أن تسبق إلى الوهم أن الإسلام حين يشرع ، فهناك مصادر متعددة للتشريع فيه حيث يعتمد الفقهاء في استنباط أدلتهم على أكثر من مصدر ويستندون إلى أكثر من دليل .

وهذا التوهم الممكن الوقوع ناقشه العلماء المتخصصون ببحث أصول الفقه في الإسلام .

فنحن نجد الكثرة الغالبة منهم حين تتحدث عن تنوع الأدلة يصدرون حديثهم بما يرفع مثل هذا الوهم، ويزيح الستار عن هذا الشك أو الريب.

فالإمام الغزالي يدفع هذا الوهم بقوله (وأعلم أنا إذا حققنا النظر أيقنا بأن أصل الأحكام واحد وهو قول الله تعالى ، إذن قول الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بحكم ولا ملزم ، بل هو مخبر عن الله تعالى ، أنه حكم بكذا وكذا ، فالحكم لله تعالى وحده ، والإجماع يدل على السنة النبوية المشرفة ، والسنة على حكم الله تعالى . وأما العقل فلا يدل على

[1] سورة الأنعام : الآية : (١٥٣)

الأحكام الشرعية بل يدل على نفس الأحكام عند إنتقاء السمع. فتسمية العقل أصلاً من أصول الأدلة تجوز على ما يأتي تحقيقه . إلا أنا إذ نظرنا إلى ظهور الحكم فى حقنا ،فلا يظهر إلا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم . فإذن إن إعتبرنا المظهر لهذه الأحكام يقول قول الرسول فقط . إذا الإجماع يدل على أنهم استندوا إلى قوله.

وإن اعتبرنا السبب الملزم فهو واحد وهو حكم الله تعالى ليكن إذا لم يجرد النظر ، وجمعنا المدارك صارت الأصول التي يجب النظر فيها أربعة[١].

ويسير على هذا المنهج الذي انتهجه الغزالي وغيره من القدماء بعض الكُتاب المحدثين في أصول الفقه .

يقول الشيخ محمد الخضري : (مرير الوصول إلى حقيقة الدين وأصول الشريعة ، يجب عليه أن يجعل من القرآن الكريم بمنزلة القطب الذي عليه تدور جميع الأدلة الأخرى والسنة النبوية الشريفة هي المعينة على فهمه ، ثم كلام الأئمة السابقين والسلط المتقدمين)[٢].

وهذا الذى ذكره الأئمة الأعلام يمكن الوقوف عليه بالنظرة الفاحصة لهذه الأوجه الأربعة المشار إليها.

فالقرآن الكريم كلام الله المنزل الذي تعبدنا بتلاوته وحفظ الله عليه لغته ونصه الذي نزل به يضم تكليفات الله عز وجل لنا سواء كانت هذه التكليفات فيها خطاب للقلب ، أو فيها خطاب للجوارح وهما ما نعبر عنهما بالعقيدة والشريعة.

والنبي صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ من ناحية ، ومكلف بتطبيق المبدأ على نفسه من ناحية أخرى ، ونحن نستطيع أن نقول على الجملة أن النبي صلى الله عليه وسلم مبلغ حين يخبر عن ربه ، وهو مبلغ حين يطبق المنهج على نفسه ، وهو مبلغ حين يتحول المنهج فيه إلى سجية وأخلاق .

---

[١] المصطفى من علم الأصول – الإمام الغزالي ص١١٨ : تحقيق و تعليق الشيخ محمد مصطفى

[٢] أصول الفقه ص٢٠٨

ولعل هذا هو ما يعبر عنه علماء السنة حين يريدون تعريف السنة قالوا: إن السنة هي كل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أمر فعل أو تقرير أوصفه خُلقية أو خلقية.

وإذا علمنا هذا واستيقناه وأضفنا إليه أن النبى لا ينطق عن الهوى وأن الله قد قال ((**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**))[1] تبين لنا بوضوح أن السنة النبوية في الإسلام غير منفصلة عن القرآن الكريم إذ هما جميعاً من إلزام الله عز وجل لنا بالمنهج أمراً ونهياً.

أما إجماع العلماء فهو لا ينشأ من فراغ ولا يقوم على الهوى ، ولا يحتمل التآمر أو التواطؤ على الكذب ، وإنما طبيعة الإجماع في الأمة إذا فهمت علماً منها أنها تخالف طبيعة الإجماع أو الأغلبية في المذاهب الديمقراطية أن الإجماع الأخير معناه أن جماعة معينة تجتمع تحت قبة أو سقف بعينه ثم تطرح عليها قضية ما اقتضت المناقشة حولها وسرعان ما تلعب الأهواء دورها فتجتذب المصلحة ذوى المصلحة إليها ، ويجتمعون على رأي واحد لاجتماعهم قبله على وحدة المنفعة ونجد أن لهم هدفا مشتركاً.

وتخرج الأغلبية أو الأقلية برأي يعبر عن مصلحتها ومصلحة الطبقة التي تنتمي إليها.

أما الإجماع فى الإسلام فلا يعنى اجتماع جماعة تحت سقف أو قبة ، وإنما هو إجماع علماء الأمة الذين قدر لهم أن يفقهوا عن الله قوله مع تباعد الأمكنة والأزمنة على قضية استنبطوها من روح الشريعة الإسلامية بعد أن أصبح لهم حساً مدربًا كونته المعارف الإسلامية وأنضجه الحرص على العمل بمقتضى ما عرفوا، وهم بهذا الحس يستطيعون أن يجدوا لما جد من الأحداث حكماً في إطار ما استقر من الأصول و الأحكام الشرعية .

[1] سورة الحشر: الآية (٧)

يفعل هذا الفعل علماء مصر ويستنبط مثل هذا الاستنباط إخوانهم في الهند ، فتجد المسألة واحدة والحكم يشبه أن يكون واحداً من غير أن يكون هناك لقاء بين الفريقين تحت سقف برلمان أو قاعدة معدة للتشريع .

يختلف الإجماع هذا عن الإجماع أو الأغلبية فيما نراه فى النظم الديمقراطية في إطار التنظيمات البرلمانية ، وبهذا الإجماع العام لا نستطيع أن نقول أننا قد ابتعدنا عن الشريعة في مصدر إلزامها الأول إلى مصدر آخر ارتأيناه أو جنحنا إليه .

وفى مجال القياس عند القائلين بالقياس لا يترك الإسلام المجال للعقل الفردي كي يعبث بالتشريع كما يشاء ، وإنما حقيقة القياس أن تكون هناك قضية مستحدثة لا نملك نصاً في حكمها ، يقوم العقل بتحليل هذه القضية وقياسها على قضية أخرى مشابهة لها إذا اتحدت القضيتان في العلة ، يمكن سحب حكم القضية المقيس عليها إلى القضية المقيسة لاشتراك القضيتين في العلة والسبب.

ومن هنا يتبين أن قضية القياس كقضية الإجماع فيها جهد بشرى ، ولكنه جهد التفقه واستنباط حكم لفروع من الأصول العامة ، ولست فى حاجة إلى التنبيه إلى أن القضايا الجزئية الطائرة كثيرة غير محصورة والأصول التشريعية محصورة ومعلومة ، فإذا أردنا أن تشمل الأصول الفروع فلا بد من جهد بشرى فقيه ، لكي يربط كل فرع بأصله،وتلك مهمة العلماء فى كل عصر ودهر وإذا ألقينا دور العلماء على هذا النحو لما قام في أمة نظام سواء كانت هذه الأمة تدين بشرع السماء أو تدين بشرع آخر وضعه لها أصحاب الأهواء وأصحاب المصالح الذين يدورون معها حيث تدور فإنى لا أعرف عقلا يستوعب قواعد لا نهاية لها لكي تتلائم مع فروع لا نهاية لها فكيف نتصور عقلاً يضع قواعد لا نهاية لها ! لتضبط فروعاً لا نهاية لها ثم يعود فيستوعب ما قعد وما قعد له .

والبديل الوحيد لكل هذا أن تكون هناك قواعد قادرة على أن يحمل عليها ما يطرأ من الأحداث وما يستجد من فروع.

والمشرع الحكيم هو الذي يستطيع بشمول علمه أن يضع مثل هذه القواعد . ودور الأمة الواعية أن تستوعب هذه القواعد ثم لها دور آخر لا يقل أهمية عن هذا الدور وهو أن تملك

من رجالها من يحمل ما يطرأ من الأحداث على ما وعته من القواعد ، فى إطار ما نعرفه اصطلاحاً – بضرورة الاجتهاد[1].

وهكذا يتبين لنا أن مصدر الإلزام في الإسلام واحد إذا نظرنا إلى حقائق الأمور و استنبطنا أصولها.

ولكنه يتعدد على ألسنة الفقهاء لاعتبارات خارجية وإضافات إلى الموضوع الأصلي كما فهمه الغزالي والشيخ الخضري على نحو ما نقلناه من كلامهما.

خصائص التشريع الخلقى فى الاسلام :

والتشريع أو القواعد التى توجه إلينا الشارع بها ليلزمنا بحدودها تمتاز بمميزات تحدث عنها العلماء بغاية التفصيل ، ونحن نشير إلى بعضها ولا نستقصيها.

(أ) – ومن هذه الخواص التشريعية أن ما يتوجه به إلينا الشارع الحكيم يمتاز بالشمول والعموم ، فهو لا يخاطب خاصية من خواص الإنسان على حساب الخواص الأخرى، ولا يكبت استعدادا من الاستعدادات ويقهره غاية القهر ليظهر على السطح غيره مما طبع عليه الإنسان من الاستعدادات والميول.

ونستطيع القول على الجملة بأن النظام الأخلاقي في الإسلام يخلق إنسانا متوازنا غاية التوازن ، ليس بالإنسان المتسرع ، ولا هو بالإنسان المكبوت، وليس بالإنسان المنطوي ولا هو بالأرعن، وليس بالإنسان البخيل ، ولا هو بالمسرف وليس بالإنسان الجبان ، ولا هو بالمتهور . وهكذا إلى آخر جميع الصفات التي تجعل الإنسان على حد الاعتدال بين أطراف متناقضة لا تنتج إلا سئ الخلال ، والتشريع الأخلاقي المتكامل بهذا المستوى ليس له وجود إلا فى إطار تشريعات السماء ، وأعود من جديد لألفت النظر إلى تلك التحفظات التي ذكرناها سلفاً ، بل إلى تلك الصعوبات والعقبات التي وضعها كتاب((العقد

[1] سبق أن أشرت إلى دراسة قرأتها ، وقد نشرت حديثاً لكاتب مصري يأخذ على المسلمين ما ينادون إليه من ضرورة أن يستظلوا بمظلة الشريعة ، ويظن أنه ببراعته العقلية قد أظهر للمسلمين أن ذلك أمر مستحيل . لأنه لابد أن يمر التشريع الإلهي بعقل الإنسان فيتحول إلى تشريع إنسان كما يرى هو و كأني أعجب غاية العجب حين أرى هذه الدراسة تنحو هذه المنحى فمرور التشريع الإسلامي في العقل ليس مرور التعقيد و الابتكار وإنما هو مرور الاستنباط

الاجتماعي)) . أمام التشريعات الأرضية ، ورأى أن المشرع مهما تنوعت أساليبه لا يقدر على اجتيازها.

أعود فألفت النظر إلى هذه الصعوبات مؤكداً بعدها أن هذه النظرة الشمولية إنما هي ميزة تشريع السماء بغير منازع .

(ب)–أما الميزة الثانية التي نوردها هنا إنما تتجلى فى إبراز التشريع الأخلاقي عند نقطة معينة يلتقي فيها العقل مع الإرادة.

ولقد سبق أن نوهنا أن الإسلام يخاطب العقل في قواعده التشريعية ، ويتوجه العقل بعد ذلك إلى الإرادة فيحملها على اختيار طريقها المرسوم ، كي تسلكه وتسير فيه .

ويشعر كل إنسان استناداً إلى هذه الخاصية ، أنه هو المشرع من نفسه لنفسه وأن تشريعه قد مر عبر العقل وسلك طريقه إلى الإرادة.

وهذه الخاصية هى الأخرى ميزة تشريع السماء دون سواه ، ولكى تتضح الصورة هنا نشير إلى هذه الظاهرة الواقعية ، أن الإنسان في مجتمع من المجتمعات حين يكون المجتمع قد تعارف على بعض القواعد واتخذها لنفسه منهج حياة خلقية ، ورأى أن يلزم أفراده بها وصاغ منها قواعد ضمها إطار المجتمع القانوني فإن أفراد المجتمع أو على الأقل الغالبية منهم يعكفون على هذا النظام يتأملونه بعناية وهمهم الوحيد أن يقفوا على ثغرة أو ثغرات يبرزون خطأهم مستندين إليها حين تحملهم نفوسهم على ارتكاب الخطايا واقتراف الآثام.

هم الكافة إذن في التشريعات غير السماوية هو البحث عن الثغرات.

أما حين يكون التشريع والإلزام بالتشريع من الله عز وجل ، فإن هذه الظاهرة تختفي ، إن المرء هنا لا يبحث عن الثغرات ، لأنه يعلم أن من يتعامل معه أقرب إليه من حبل الوريد وأنه يعلم السر وأخفى من السر ، بل إن الواقع المشهود ليؤكد أن الذي يستظل بمظلة التشريع الإلهي في إطاره الصحيح يشعر بألم شديد حين يقع منه مخالفة قانونية ، أو حين يتنكب طريقه وتزل قدمه عن سلوك الطريق الذي رسمه الله له.

هذه الظاهرة على الواقع المحس تؤكد لنا هذه الميزة التي نحن بصددها وهى أن التشريع الإسلامي إنما يمر من خلال عقل الإنسان وإرادته ويلتقي العقل والإرادة عند نقطة هى ما نسميها بنقطة الاتفاق بين العقل والإرادة على قاعدة التشريع.

وهذه الميزة تخالف بطبيعتها ما تميزت به تشريعات أخرى أرضية ، إذ أن بعض التشريعات ، مثلاً تتوجه بتشريعاتها وقواعدها إلى غريزة من الغرائز أو إلى جميع الغرائز ، ويظهر هذا الاتجاه قديماً وحديثاً في مذهب اللذة في الأخلاق أو مذهب المنفعة الذي لا يزيد في حقيقته عن أن يكون تحولاً أو ترقياً في سلم مذهب اللذة .

وهناك تشريع آخر في مجال الأخلاق يخاطب في الإنسان غريزة حب العدوان ورغبته في السيطرة وحبه للقهر والغلبة ، فيتأسس مذهب بكامله على فكرة القوة ويتحمس لهذا المذهب فيلسوف ألمانى ساندته قوى خفية وهو ما نراه في مذهب (نيتشه) ، إنه لا يحترم الرحمة التي تغمر الضعفاء والعجزة ويعتبر الرحمة ضعف وهو لا يحترم الصبر على المكاره فالصبر عنده خضوع و مهانة ، وهو لا يحترم الكرم وبذل المال للفقراء ، فالفقراء ضعفاء لا مكان لهم على هذا الكوكب ، وسمو الأخلاق عنده إنما يتجلى غاية التجلى في القوة الجامحة ، حيث يدوس القوى بأقدامة كل ضعيف في المجتمع ويرقى فوق أكتافه ويعلو فوق المتراكم من حطامه ، ليكون هو في النهاية (السوبرمان) أو الرجل الممتاز .

كل هذه المذاهب لا تمرر قواعدها الأخلاقية من خلال العقل بحيث يتوجه العقل بها مختاراً بالإرادة لترجح للإنسان ما ينبغي عليه أن يفعله وإنما كلها أو جُلها تخاطب الغرائز وتهيج العواطف .

(جـ)- ومن خواص التشريع في الإسلام ذلك الارتباط العضوي الموجود بين فقرات هذا التشريع والذي يجمع بين أجزائه ، بحيث يظهر لنا في صورته النهائية كلاً متكاملاً له وظيفته العامة وهى الارتقاء بالإنسان فرداً وجماعة و لكل جزئية من جزئيات هذا التشريع دورها الخاص الذي يرتبط بالوظيفة العامة للتشريع ككل ، وفى إطار هذه الخاصية نجد التشريع الإسلامي لا يقبل في نطاقه عنصراً تشريعياً غربياً عن بيئته وإنه ليلفظه ولا

يستطيع أن يتكيف معه تماماً كما يلفظ الجسم الحي عنصراً ليس من بيئته حين يزرع فيه ولا يتمكن من التكيف معه

ولكي نوضح الارتباط العضوي بين جزيئات التشريع يمكن أن نقف عند تشريع الإسلام فى قضية كقضية قطع يد السارق ، إن الشرع لا يقطع يد السارق إذا سرق وكان دافعه إلى السرقة الجوع المهلك وهذا الشرط إنما يرتبط ارتباطا أكيداً بوجوب احترام آدمية الآدمي وإنسانية الإنسان وحقه في الحياة ٠ إن ذلك الحق مكفول للأفراد بحكم التشريع الإسلامي العام والخاص ٠

ومن طريف ما يُقرأ في فقه الظاهرية أنهم يوجبون الدية على أهل بلد مات بينهم فقيد من الجوع لأنهم قتلوه ٠ وكفالة الفرد ووجوب حق الحياة له لا يبحث في حدود السرقة وإنما يبحث في إطار المذهب الاقتصادي العام في الإسلام ٠

وأيضاً قطع يد السارق إذا سرق لا يتأثر حين يلوح صاحب المال بماله لمن لا يملك المال وهو ما يقول عنه العلماء أنه يشترط في قطع يد السارق أنه يكون قد أخذ المال من حرز مثله ٠

وخلاصة القول في قطع يد السارق أنها لا تقطع إذا كانت السرقة من فاقة أو حاجة تتوقف عليها الحياة، وكذلك لا تقطع يد السارق إلا إذا احترمنا مشاعره وطبائعه وغرائزه على نحو ما بيناه .

وبإمكاننا أن نجد في إطار الشريعة الإسلامية العام أن الشريعة لا تقيم الحد – أي حد – إلا حين نرفع الضغط النفسي و الضغط العضوي معاً ، فإذا ما رفع المجتمع الإسلامي عن الأفراد ضغوطهم النفسية والعضوية ثم ارتكب أحدهم الجريمة بلا دافع ولا تسهيل كان مصراً على جريمته بلا مبرر للجريمة ، كان من المناسب أن توقع عليه الشريعة الإسلامية من العقوبات ما يردع النفوس المريضة حين تفكر في الجريمة فيحفظ على المجتمع أمنه وأمانه ويحفظ على الأفراد رقيهم الأخلاقي وسلامة سلوكهم الذي يناسب كرامة الإنسان.

(د) – ونختم هذه الطائفة المختارة من خواص التشريع والتي نوهنا بأننا لن نستقصيها بهذه الخاصية البادية في التشريع الإسلامي ونظامه الأخلاقي بحيث تميزه عن بعض الهرج الذي تفتق عنه ذهن الإنسان في بيئة من البيئات وفى ظروف خاصة ظهر فيها التآمر على كرامة الإنسان ، وهذه الخاصية التي تميز الجانب التشريعي أو الأخلاقي في الإسلام هي أن تشريع الأخلاق إنما يرتبط بالإنسان نفسه فهو المخاطب به وهو المسئول عن تنفيذه ، فالإنسان في إطار التشريع الأخلاقي سائر على الواقع فهو ينظر على سلم الكمال فيختلط لنفسه نظاماً إلى مرحله يقصد أن يرقى إليها فهذه المرحلة المرتقبة تمثل بالنسبة إليه أملاً وهدفاً ، فإذا حققها أصبحت بالنسبة إليه واقعاً يعيشه ويحياه فيثور عليه ويقلق ويختط لنفسه نظاماً إلى مرحلة أعلى وهكذا يظل الإنسان يرقى في إطار تشريع مرسوم يقبل الرقى ويرحب بحركة صاحبه على درج الكمال ٠

التشريع الأخلاقي في الإسلام إذن مرتبط بالإنسان خطاباً ومسئولية وتنفيذا وجزاءاً ومنذ أمد ليس بالبعيد طالعتنا أفكار تربط النظام الأخلاقي بأثر من آثار الإنسان ثم تجعله – ويالأسف – متحكماً في الإنسان ٠ إن الماركسية الثائرة تربط النظام الأخلاقي كله بالاقتصاد وتجعل لكل مرحلة اقتصادية أو حركة من حركات التاريخ المادي نمطاً من الأخلاق يناسبها ونظاماً من القيم لا يملك الإنسان حياله اختياراً ، ويسخر ماركس وأتباعه من محاولة تقييم مرحلة أخلاقية من غير وعى بالنظام الاقتصادي الذي يحكمها فهو يعتبر الاقتصاد قاعدة الهرم و أساس كل فكر وهو المحرك لكل سلوك . وإن تعجب فعجب هذا الصنيع للذي يجعل المتحكم في الإنسان بعض صنعته وحاكم مصيره بعض آثاره[1] ٠

أين هذا الهزر الفكري و المداعبة المنطقية من نظام يهتم بالإنسان في جميع مناحيه ويرتقي بالإنسان على اختلاف استعداد أفراده ويقنع الخاضعين له على اختلاف مشاربهم

[1] كتب الشيخ محمد باقر الصدر كتاباً عن الاقتصاد في الإسلام أسماه <اقتصادنا>> ناقش في قسمه الأول النظام الشيوعي مناقشة علمية فليراجعه من شاء

و أذواقهم ويجد الخاضعون له أمنهم وكمالهم على اختلاف البيئات وتعدد المناخ و الأجواء .

المسـئولية

تعتبر المسئولية الركن الثاني من أركان الأخلاق، والتي لا تقوم الأخلاق بدونها . ونحن حين نتصور الإلزام فإنه من الطبيعي أن نتصور معه المسئولية والجزاء . والمسئولية كلمة تعبر عن السائل والمسئول ، والشيء المسئول عنه .

ولا يعدل أن يكون السائل في شئ يتحقق وجوده فيه إلا أن يكون هو حقيقة المشرع ، وحقيقة الملزم بهذا التشريع ، وقد يجوز العقل أن ينوب هذا المشرع في المسئولية غيره ، ولكنه في النهاية يبقى نائباً عن المشرع والملزم ، ولا تتحقق له صفة السائل بالاستقلال .

وفى تحليلنا لفكرة الإلزام السابق تبين لنا أن المشرع في الإسلام هو الله عز و جل ، وهو وحده الذي توجه إلينا بالإلزام ، فهو وحده إذن الذي سيتوجه إلينا بالسؤال عما ألزمنا به .

وإذا كنا نجد أحياناً أن الله عز و جل قد كلف بعض أفراد المجتمع بالقيام على حراسة الشرع في إطار نظام عام هو نظام الدولة التي تعيش في سماوات الإسلام و تعاليمه ، فإن هذا التكليف لا يعطي للقائمين على الشريعة في الدنيا ، و المسئولين على حراستها حق التصرف بالاستقلال ، لأنهم في الحقيقة نواب عن المشرع ، ولا مجال لها في وضع قاعدة جديدة ، و إن كانو بحكم النيابة عن الملزم ، وبحكم أنهم مكلفون بفهم الشريعة يستطيعون أن يستنبطوا لكل طارئ من طوارئ الأحداث حكماً يناسبه مأخوذاً من روح الشريعة العامة ، أو مقيساً على حكم وارد به نص صريح .

أما المسئول فهو ذلك المكلف الذى توجه إليه الشارع بالإلزام .

ولا يكون المكلف مسئولاً إلا إذا كان على وعى تام بحقيقة ما يكلف به من ناحية ، و أن يكون المكلف به واحداً من بدائل تتوجه إليها إرادة المكلف لاختيار واحد منها ، وهو في ذلك حر مختار وليس مسلوب الإدارة ، ولا مقهوراً على فعل واحد من هذه البدائل .

وكثيراً ما يتحدث المفكرون عن ثلاثة أنواع أو مستويات من المسئولية ، مسئولية شخصية أو فردية وهى المسئولية الدينية ، ومسئولية اجتماعية مدنية أو جنائية ، ومسئولية أخلاقية ، وهم يقصرون المسئولية الأخلاقية على تلك المسئولية الناشئة ...((المسئولية الناشئة عن إلزامية القانون الأخلاقي ، وعن كون الفاعل ذا إرادة حرة ، ومعنى ذلك أن الفاعل الذى تكون أفعاله ضرورية ، أي ناشئة عن أسباب طبيعية ، أو مسيرة بإرادة غيره ، لا يعد مسئولاً من الناحية الأخلاقية ، ولهذه المسئولية درجات متفاوتة ، أعلاها مسئولية الفاعل الواعى الذى تصدر الأفعال عن إرادته بحرية تامة ، وأدناها مسئولية الفاعل الذي يسيطر الهوى على قلبه ، ويعمى بصيرته ، ويمنعه عن رؤية الحق))[1].

غير أن هذا الذي يؤكد عليه العلماء المشتغلون بدراسة الأخلاق من الفصل بين هذه المسئوليات لا نجد نظيره في البناء للأخلاق النظرية في القرآن الكريم ، إلا إذا أردنا أن نتأمل المواقف تأملاً نظرياً ، أما على المستوى العملي فإننا نرى القرآن الكريم والسنة النبوية تمزج بين هذه المستويات جميعاً وتدخلها في نطاق النظرية الأخلاقية ، وفهم الموقف الإسلامي في هذه الجزئية سهل ميسور ، ذلك أن الشارع الحكيم حين يتوجه بالإلزام للمكلفين ، إنما يتوجه إليهم في الكثير الأغلب من خلال ذواتهم فتمر القاعدة التشريعية ـ على نحو ما بينا ـ بالعقل الإنساني فيفهمها ويهضمها بل ويتمثلها ، ثم يتوجه بها للإرادة الحرة فيكون بعد ذلك الاختيار ويكون الفعل ، وهذا هو المناخ الملائم بالقطع لكل فكرة أخلاقية ينتج عنها عمل قيم وله قدره .

يبقى إذن أن نشير إلى العنصر الثالث في المسئولية وهو الفعل أو القول المسئول عنه .

ومن المعروف بداهة أن الإنسان لا يُسأل عن شيء لا يطيقه و لا يتحمله ، كما لا يُسأل عن شيء توجهت إليه قدرته بالقهر أو وقع عليه من غير اختيار له فيه ، وإنما يسأل الإنسان عن فعل مقدور له توجه إليه باختياره،أو أحجم عنه بإرادته.

[1] راجع دستور الأخلاق: عبدالله دراز ــ ص ١٣٣ وما بعدها ــ وجميل صليباً ــ المعجم جـ ٢ ــ ص ٣٧ .

والإنسان أمام مثل هذه الأفعال يستشعر أمرين :

أحداهما : شعوره بالقدرة على الفعل والترك ، وهذا الشعور ربما يملأه بالزهو ، والإحساس بالذات ٠

ثانيهما : شُعوره بمسئوليته عن ناتج فعله والأثر المترتب عليه ، (وهذا الشعور الأخير يجبره على خفض الجناح ، والظهور بمظهر التواضع البعيد غاية البعد عن الشعور بالذاتية) وهذا الشعور الأخير من أهم النتائج التي ترتب على الفعل الإنساني حين يكون مغلفاً بمبدأ الأخلاق ، ومعتمداً على ترتيب أساس منه ٠

والإنسان يكون مسئولاً عن الفعل بإعتبار موقفه وبإعتبار مكانته ، فإذا كان مثلاً في مكان القيادة والقدوة يسأل عن فعله مرتين ، مرة بإعتبار أنه مخطئ أو مصيب في مباشرته للفعل ، أو إحجامه عن الفعل ، ومرة بإعتبار أن غيره سيقتدي به فهو بفعله أو إحجامه قد أضله أو هداه ٠

وفى إطار هذا الفهم يمكن أن نفهم قوله تعالى : **((وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ))**[١]

وكذلك قوله تعالى في زوجات النبى : **((يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا))**[٢]

وهذه المسئولية كما يترتب عليها عقوبة مزدوجة يستحقها صاحبها حين يحجم عن الفعل الأخلاقي ، كذلك يترتب عليها ثواب مزدوج حين يقدم المكلف على مباشرة الفعل بطريقة يرضاها المكلف أو الملزم ((وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا))[٣].

و المتأمل في ذكرناه لا يغيب عنه أن الثواب مرتين أو العقوبة مرتين حين تحل بأولئك النفر الذين هم في موقع القدوة ، إنما تقع عليهم أو تنالهم بما كسبت أيديهم ، وبما أنتجوا

[١] سورة العنكبوت : الآية (١٣) .
[٢] سورة الأحزاب : الآية : (٣٠) .
[٣] سورة الأحزاب : الآية : (٣١)

من أفعالهم ، فهم قد عوقبوا مرتين إذا ضلوا ، مرة لضلالهم ، و أخرى لإضلالهم ، وهم قد أثيبو مرتين ، مرة لأنهم قد أحسنوا ، و أخرى لأنهم رسموا الطريق لأولئك الذين يتبعونهم . أما إذا كان المرء من الدهماء و العامة الذين يقتدون ولا يقتدي بهم غيرهم ، والذين يتبعون ولا يتبعون فإنه لا يسأل إلا عن فعل نفسه ، ولا يُعاقب أو يُثاب إلا بمقدار ما أقدم أو أحجم .

وفى هذا الإطار يمكن أن نفهم قوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }[1]

وقوله تعالى { **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** }[2] وغير ذلك من الآيات القرآنية التي تتحدث عن المسئولية بهذا اللون من الحديث.

وعلى أساس من إختلاف المواقف في الفعل ، وإختلاف طاقات المكلف وقدراته .نفهم الآيات و الأحاديث النبوية التي تتفاوت درجات الخطاب فيها ، وتتفاوت كذلك درجات الإلزام ، لا لشيء إلا لتفاوت قدرات المكلفين ، وإختلاف إمكاناتهم .

ومن هذه النصوص ما نشير إليه بغير استقصاء كقوله تعالى :{مَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ}[3]

وقوله :{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ}[4]

وقوله تعالى :{ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[5]

وفى هذه الآيات جميعها حديث عن رد الفعل الذي يجب أخلاقياً أن يكون تجاه ما وقع علينا من إساءات الغير ، فيطالبنا النص القرآني مرة بالعقوبة ، وأخرى بكظم الغيظ والصبر عليه وثالثة بالعفو والرابعة بالإحسان .

---

[1] سورة الزلزلة : الآية : (٧ ، ٨)
[2] سورة المدثر: الآية : (٣٨)
[3] سورة البقرة : الآية : (١٩٣)
[4] سورة النحل : الآية : (١٣٦)
[5] سورة آل عمران : الآية : (١٣٣ ، ١٣٤)

وفيما يتعلق بالدرجة العليا (الإحسان) نجد القرآن الكريم يكلف بها من يقدر عليها ، ولا يقبل منه أن يتنازل عنها ، نرى ذلك في موقف أبى بكر الصديق من مصطح الذي أساء إليه في ابنته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعن باقي زوجات النبي صلى الله عليه و سلم ، وشارك في ترويج حادثة الإفك مع المروجين ، فقطع أبو بكر ما كان يجريه عليه من أرزاق لرقة حاله جزاءً لما ارتكب من الإثم ، فنزل القرآن الكريم يعاتب أبا بكر لتخليه عن موقفه ، والذى جلبت نفسه على أن تتحمل مثله {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[1]

ومن الأحاديث النبوية الجامعة في هذا المجال ، والتي يمكن فهمها في إطار التحليل السابق قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مسلم بالسند إلى ابن عمر من طريق نافع (عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال

((ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، و الرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية عن بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته))[2] .

و أيضاً فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم و تحمله للمسؤولية المجتمعية وعدم تخليه عن مبادئه.

نجد ذلك في مسئوليته نحو الأطفال و الضعفاء حيث يقول صلي الله عليه وسلم (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه)[3] .

---

[1] سورة النور : الآية : (٢٢)

[2] رواه الإمام مسلم في صحيح حـــ١٢ ص٢١٣ كتاب الإمارة - باب فضيلة الأمير العادل و عقوبة الجائر و الحث على الرفق بالرعية و النهي عن إدخال المشقة عليهم . طـ المصرية ، القاهرة

[3] متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب الآذان حديث رقم ٧٠٧ ، وصحيح مسلم حديث رقم ١٠٨٣ ، كتاب الصلاة

وذلك تحمل المسئولية العامة في قوله صلى الله عليه وسلم (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس كافة ، و أعطيت الشفاعة)[1] .

وقال تعالى **(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)**[2] .

الجـزاء

والآن نصل إلى الجزء الثالث من هذا المركب من أجزاء ثلاثة وهوما نعرفه باسم الأخلاق حيث تركبت من الإلزام والمسئولية والجزاء .

والجزاء ضرورة للأخلاق لا تقوم الأخلاق بدونه ، ولا يمكن تصورها في غيبته ، ذلك أنه من الطبيعي أن نفهم أن قانون الأخلاق ليس ملزماً بذاته ، والتشريع الخلقي لا يملك من حيث هو أن يحمل الإرادة على الفعل أو الترك .

وليست فكرة الواجب في الأخلاق بكافية على حمل إرادة الإنسان على مباشرة الفعل الخلقي ، كما أن في ذات الوقت لا يمكن الاعتماد على صوت الضمير و المشاعر الإنسانية وحدها من غير أن يكون هناك ارتباط على نحو ما بين المشاعر وفكرة الثواب و العقاب ، وسواء رضينا أم أبينا فإن فكرة ألم الضمير أو ارتياحه ستكون عديمة ما لم يكن لها ارتباط مؤكد بفكرتي الثواب و العقاب ، فالضمير يألم حين يألم لأنه يتوقع عقاباً في المستقبل ، أو يحزن على فوات خير فيما مضى أو يستقبل من أزمنة ، وهو يسعد حين يسعد لأنه يستشعر خيراً يأتيه في المستقبل .

مترتباً على فعله أو على الأقل يتوقع أنه لا يصيبه لألم الذى يصيب غيره ممن تقاعسوا عن مثل فعله فكرة الجزاء بالثواب والعقاب ،إذن تبقى متمثلة لنا على أنها ركن ركين في تصوير البناء الخلقى بحيث لا يمكن لإنسان ما أن يتصور الأخلاق النظرية في غيبته .

والجزاء في الإسلام يحتل هذه المكانة من بناء النظرية الأخلاقية.

---

[1] متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب التيمم ، حديث رقم ١٣٩ ، وصحيح مسلم ، كتاب المساجد ، رقم ١١٩١.
[2] سورة التوبة : الآية : (١٢٨)

وقد سبق لنا أن نوهنا إلى أن التشريع في الإسلام يظهر كله مغلفاً بالمبدأ الأخلاقي مشيداً على أساس منه ، ومن هنا فإننا نجد الشرع الحكيم قد قسم تشريعه إلى مرحلتين : **مرحلة** : يجبر عليها الإنسان الفرد جبرا لأنها أقل درجات الفضيلة، وبغيتها ينهار أساس المجتمع ، و تضمحل المبادئ الأولى للأخلاق .

وفى هذا القسم من التشريع استحفاظ لوكلاء الأمة من البشر من الله كى يقوموا بحراسته والسهر عليه ، وهم مسئولون أمام المشرع ذاته عن التقصير في حراسة هذا الجانب و إيقاع الجزاء المناسب على أولئك الذين يخرجون عليه .

أما الذين يلتزمون بمبادئ هذا القسم فإن الله عز وجل لم يوكل إلى المجتمع أن يثيبهم إلا بمقدار الرضي الاجتماعي ، و إشعار الفرد الملتزم بأنه شخصية سوية مقبولة الشهادة معدلة الذمة متزنة المزاج .

وفى هذه المرحلة وجه شبه من حيث حراسة مبادئها مع القوانين الأخرى التي وضعها البشر ، وأوكلوا إلى بعض رجالات الدولة حفظها ورعايتها من الخروج عليها ، إلا أنه يبقى لهذا القسم في الشريعة الإسلامية امتياز الثواب والعقاب من الله عز و جل الذي هو صاحب التشريع والقادر على أن يعلم خفايا النفوس المنفذة له أو الخارجة عليه ، وهو امتياز لا يستهان به في الواقع العملي إذا يظهر أثر هذا الامتياز في الجانب التطبيقي فبينما يحتال المحتالون في الخروج على القانون البشري كى لا يقعوا تحت طائلة القانون ، نرى أولئك المؤمنين الملتزمين بمنهج الله يحرصون غاية الحرص على أن يلتزموا بمبادئ القانون ، وأن يكون ذلك في رضي وقبول تنشرح له صدورهم ، إذ أنهم يعلمون غاية العلم أن الله باعتباره هو المشرع لا يقبل ممن شرع لهم إلا أن يؤدوا وأن يكون الأداء برضي وإنشراح صدر ، ويشرح القرآن الكريم ضرورة الخضوع للمنهج في مثلين إيجابا وسلباً يحتويان القاعدة بغاية الجلاء فيقول : { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا

دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ }[1] .

وهناك مرحلة أخرى من التشريع لا يجبر الإنسان عليها ، ولكن تبقى في حيز اختياره إن شاء فعل وله الأجر ، و إن شاء أحجم ولا عقوبة عليه .

و المتأمل في نصوص التشريع يجد أن هذه المرحلة الثانية تلازم المرحلة الأولى في كل جزئية من جزئياته ، فالزكاة في المال حق واجب ، و الصدقة فوقها بالإختيار ، ونصوص العقد في الحياة الزوجية حق واجب الأداء ، وفوقه **((وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا))**[2]

وعند فسخ عقد الزواج هناك أصول قانونية تتبع ، وفوق هذه الأصول القانونية قول الله عز وجل **((وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)))**[3]

وهكذا في كل قضية تشريعية لها حد أدنى يجب الحفاظ عليه ، ولها حد أعلى يلفت المشرع نظر المكلفين أدنى يجب الحفاظ ، ولها حد أعلى – يلفت الشرع نظر المكلفين – إلى إمكان الرقى على درجة ولهم الجزاء .

وهذه التركيبة التشريعية تحلق بالتشريع إلى آفاق عُليا لا يدنو منها أي تشريع .

ويبقى لنا أن نتحدث عن ساحة الجزاء و أزمنة وقوعه.

إن ساحات الجزاء واسعة عريضة ، حتى تشمل باتساعها الزمان الممتد ليشمل الدنيا و الآخرة ...

فهناك جزاء يقع في الدنيا يوقعه بإذن من الشارع المسئولون عن حراسة الحد الأدنى من التشريع وهناك جزاء في الدنيا كذلك يوقعه بالمكلفين المشرع نفسه فهو قد يوقع بالخارجين على القانون عقوبة يقدرها هو من ضيق في النفس أو ألم في الوجدان ، ومن تضييق في المعيشة أو نقص في الأموال و الأنفس و الثمرات ، وفى المقابل قد يوقع المشرع جزاء

[1] سورة النور : الآية : (٤٨ : ٥٢)
[2] سورالنساء: الآيه : (١٩)
[3] سورة البقرة: الآية : (٢٣٧)

بالرضي على الملتزمين بمبادئ التشريع ، فيمنحهم السعادة و إنشراح الصدر ويوسع لهم في الرزق ، أو ينسئ لهم في الأجل إلى غير ذلك مما نعلمه أو لا نعلمه .

ويبقى والجزاء الأكبر في الآخرة ثواباً للمطيعين وعقاباً للعاصين .

ومهما نازع المنازعون ممن تأخذهم الرعدة حين يستمعون إلى نصوص السماء تتوعد بالعقوبة أو تعد بالثواب ، فإن قضية الثواب والعقاب في الآخرة تبقى على العموم ضرورة أخلاقية ليس بإمكان العقل أن ينازع فيها إلا حين يكون مكابراً أو مجادلاً .

وبيان كون الثواب و العقاب في الآخرة ضرورة أخلاقية يتضح لنا من تأمل الواقع نفسه ، فكثير من الناس يصنعون المعروف في غير أهله ، ولا ينالهم في مقابل صنع هذا المعروف إلا الأذى ونكران الجميل ، ولو لم يكن هناك جزاء في الآخرة تؤمن به الفطرة ويركن إليه الشعور ويثق به العقل لانهارت الأخلاق من أساسها و لاستهان الإنسان مهما كانت درجة التزامه بالأخلاق وتطبيق مبادئها .

وليس هناك من مخرج معقول من هذه الأزمة إلا أن نقول بأن الجزاء الأخروى مرتبط غاية الارتباط بالأخلاق النظرية لا يجوز أن ينفك عنها .

والمتأمل لنصوص الشريعة السليمة في هذا المجال يجدها في غاية الإحكام ، إنها تلوح للمكلف دائماً بهذا الجزاء الأخرى لتحمله على الالتزام بالمبدأ، وتجبره على تنفيذه رعاية لهذا الجزاء حرصاً على الثواب ونفوراً من العقاب .

غير أن الطبيعة الإنسانية لا يردعها فى الغالب إلا كل قريب، والتلويح بثواب المستقبل أو عذابه قد لا يكون كافياً لحمل الناس على المبدأ الخلقى ، ولذا فإننا نجد الشرع الحكيم في بعض نصوصه وهى كثيرة يلفت النظر إلى الموت وألمه إلى الجوار القرآن الكريم ونصوصه باعتبار أن الموت هو المدخل إلى الحياة الأخروية وأول منازل الآخرة التي نراه ونشاهده.

غير أن الموت و إن كان يقرب المسافة بين المكلف وقضايا التكلف إلا أن عوامل الإلف والعادة قد تجعل المرء أحياناً لا يتأثر بالموت إلا ريثما يشاهده ويوارى الميت التراب ، والمشرع باعتبار أنه خبير بخبايا النفوس ، عليم بأسرارها قد سد هذه الثغرة في مجال حمل النفوس على الالتزام بالمبدأ الخلقي وتطبيقه ، ويظهر ذلك فيما يسميه الإسلام بالابتلاء ، فالابتلاء من أهم آثاره أنه يعود بالفطرة إلى صفائها الأول ويربطها بخالقها، ويرفع عنها كل انحراف أو زيغ : قال تعالى ((وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ نَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ))[1]

والمتأمل فى هذا النص يجد أن في الابتلاء بنقص الأموال والأنفس والثمرات ونحوها عودة إلى الله بصفته أنه هو المبدأ وأن إليه الانتهاء.

وعلى الجملة فإن التلويح بالجزاء فى الآخرة ولفت النظر إلى الموت باعتباره أول أعتابها وما يقع على الإنسان من ألوان الابتلاء لعوامل كافية في حمل الإنسان على الالتزام بالمبدأ.

والمتأمل في كل ما ذكرناه يتضح له سلامة بناء الأخلاق النظرية في عناصرها الثلاثة: الالتزام والمسئولية والجزاء.

[1] سورة البقرة : الآيات : (١٥٤ : ١٥٧)

الخاتمة

إن علم الأخلاق هو جملة القواعد والأسس التى يعرف بواسطتها الإنسان معيار الخير فى سلوك ما أو مدى الفساد والشر المتمثل فى سلوك آخر فالأخلاق كعلم معيارى يكون وفق هذا المفهوم علما خاصا بالإنسان دون باقى المخلوقات وهو يشكل منهاجه السلوكى القائم على مجموعه من المبادئ والقيم التى تحكم قناعات الفرد وعليه نقول :

أن الأخلاق هى علم تحديد معايير وقواعد السلوك أو هى علم التعرف على الحقوق والواجبات فالأخلاق الإسلاميه السلوك من أجل الحياه الخيرة وطريقة للتعامل الإنسانى حيث يكون السلوك بمقتضاها له مضومن إنسانى ويستهدف غايات خيرة

وقد عرف بعض الباحثين الأخلاق من منظور اسلامى بأنها : عبارة عن (مجموعة المبادىء والقواعد المنظمة للسلوك الإنسانى التى يحددها الوحى لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو تحقيق الغاية من وجوده فى هذا العالم على أكمل وجه)[١]

وأخيرا: للإنسان دوره فى تحديد واجباته الخاصة والتعرف على طبيعة مظاهر السلوك الإنسانى المعبرة عن القيم ، لذا تعد الأخلاق روح الإسلام ، حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الدين حسن الخلق)[٢]

[١] مقداد يالجين : التربية الأخلاقية الإسلامية رسالة دكتوراة منشورة ط ١ ، القاهرة ، مكتبة الخنجى ١٩٧٧م صـ٧٥

[٢] صحيح مسلم ١٦ / ١١٠.

التوصيات والنتائج :

١-أن مبحث الأخلاق من المباحث العلمية الهامة والعظيمة التي اهتم بها العلماء المسلمون على اختلاف تخصصاتهم العلمية وما يزال هذا البحث من أهم المباحث على المستوى الفكرى الإسلامى وغير الإسلامى مع اختلاف فى الفهم.

٢-أن فهم الخلق بمقتضى اللغة والتحديدات التى اصطلح عليها العلماء لا يخرج عن المعانى التالية:

- السجية أي الطبيعة المتمكنة في النفس سواء كانت حسنة أو قبيحة.
- العادة والطبيعة والدين والمروءة.
- ملكة تصدر الأفعال بها على النفس بسهولة من غير تفكير ولا روية وتكلف.
- صفة مستقرة فى النفس ذا ت آثار فى سلوك الفرد والمجتمع قد تكون محمودة أو مذمومة.

٣- أن الأخلاق الإسلامية التزام بما ورد فى القران والسنة من الزامات وتوجيهات الهية تقتضى رفعة الإنسان والسمو به إلى آفاق علوية وتحقيق إنسانية الإنسان بما هو على فطرته .

٤- أن علم الأخلاق لا يدرس مواقف سلبية كما يفعل علم الجمال وإنما هو يدفع الإنسان دفعا الى إحداث حركة السلوك مؤثرة بقدر ما يستطيع المرء.

٥- الإسلام الحنيف يركز على العقل ويهتم به غاية الاهتمام حتى يظن الظانون لأول مرة أن الإسلام بصدد أن يجعل العقل هو مصدر الإلزام الأخلاقى فنجد أن بعض الفكرين الاسلاميين قد اهتم بالعقل وركز عليه والبعض الآخر قد اهتم بالعاطفة وتجاوب معها

٦- أن العقل فى نظر الإسلام لا يختلف عنه فى نظر جميع المفكرين الذين يفهمون طبيعة العقل فهما جيدا فالاسلام يخاطب العقل على طبيعته فلا ينقص منه شيئا ولا يضيف إليه أمرا فوق قدرته

٧- أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل المنزل الذى تعبدنا بتلاوته وحفظ الله عليه لغته ونصه الذى نزل به بضم تكليفات الله لنا سواء كانت هذه التكليفات فيها خطاب للقلب أو فيها خطاب للجوارح وهما ما تعبر عنهما بالعقيدة والشريعة

٨- إن مساحات الجزاء واسعة عريضة تشمل باتساعها الزمان الممتد ليشمل الدنيا والآخرة ، فهناك جزاء يقع فى الدنيا يوقعه المسؤولون عن حراسة الحد الأدنى من التشريع ، ويبقى الجزاء الأكبر فى الآخرة ثوابا للمطيعين وعذابا للعاصين

المصادر و المراجع

١- القرآن الكريم

٢- السنة النبوية المطهرة

٣- دستور الأخلاق في القرآن الكريم : د/محمد عبدالله دراز تقله إلى العربية د/ عبدالصبور شاهين .

٤- المجمل في تاريخ علم الأخلاق : ترجمة د / توفيق الطويل

٥- الفصل في الملل و النحل لإبن حزم ، ط المثنى بغداد ، و الخانجي بمصر ١٩٨٤م

٦- التفكير الفلسفي في الإسلام ، د/ عبدالحليم محمود ١٩٧٢ م

٧- الصحوة الإسلامية في ميزان العقل د/ فؤاد زكريا ، ط : دار الفكر المعاصر

٨- المستصفى من علم الأصول للإمام الغزالي : تحقيق الشيخ مصطفى أبو العلا

٩- اقتصادنا : محمد باقر الصدر ، بغداد ١٩٨٥ م

١٠- الأخلاق : د/ سعد الدين السيد صالح ، دار الأرقم بالزقازيق ١٩٩٣م

١١- راجع الترجمة العربية " للعقد الاجتماعي" تأليف جان لوك – هيوم ، جان جاك روسو ، نقله للعربية / عبدالكريم أحمد ، مراجعة / توفيق إسكندر : ط : دار القومية العربية للطباعة .

١٢- دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي د/ محمود حمدي زقزوق – مطبعة وهبة .

١٣- صحيح الإمام مسلم ط: المصرية للقاهرة

١٤- القد الإجتماعي – جان جاك روسو : ترجمة / عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٣م
١٥- أصول الفقه : محمد الخضري بك ط : المكتبة التجارية الكبرى : عام ١٩٦٩م
١٦- المعجم الفلسفي : جميل صليبيا ط : دار الكتاب اللبناني
١٧- سلسلة الألف كتاب : الإدارة العامة للثقافة التابعة لوزارة التربية و التعليم المصرية عام ١٩٥٥م
١٨-مبادئ في نظرية الشعر والجمال أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
١٩-التربية : لجان جاك روسو

Sources and References

1- The Holy Quran
2- The purified Sunnah of the Prophet
3- The Constitution of Ethics in the Holy Qur'an: Dr. Muhammad Abdullah Diraz translated it into Arabic by Dr. Abdul Sabour Shaheen.
4- The summary in the history of ethics: translated by Dr. Tawfiq Al-Tawil
5- Chapter on Al-Milal and Al-Nahl by Ibn Hazm, Al-Muthanna District, Baghdad, and Al-Khanji, Egypt, 1984 AD
6- Philosophical thinking in Islam, Dr. Abdel Halim Mahmoud, 1972
7 - The Islamic awakening in the balance of the mind Dr. Fouad Zakaria, i: House of contemporary thought
8- Al-Mustasfa from the science of assets of Imam Al-Ghazali: Edited by Sheikh Mustafa Abu Al-Ela
9- Our Economy: Muhammad Baqir Al-Sadr, Baghdad 1985 AD
10- Ethics: Dr. Saad Eddin Al-Sayed Saleh, Dar Al-Arqam in Zagazig, 1993
11- See the Arabic translation of "The Social Contract" by Jean-Luc - Hume, Jean-Jacques Rousseau, transcribed into Arabic / Abdel-

Karim Ahmed, revision / Tawfiq Iskandar: T: Dar Al-Wataniya Arabia for printing.
12- The role of Islam in the development of philosophical thought, Dr. Mahmoud Hamdi Zagzoog - Wahba Press.
13- Sahih Al-Imam Muslim I: The Egyptian for Cairo
14- Social Codification - Jean-Jacques Rousseau: translated by Adel Zuaiter, Hendawi Foundation, 2013
15- Fundamentals of Jurisprudence: Muhammad Al-Khudari Bey, The Great Commercial Library: 1969 AD
16- The Philosophical Dictionary: Jamil Salibiya I: The Lebanese Book House
17- The Thousand Book Series: The General Administration of Culture of the Egyptian Ministry of Education in 1955 AD